مراجعات

ملحق شهري تصدره وزارة الأوقاف والشؤون الدينية

جمادى الآخر 1443هـ - يناير 2022م

الصفحة الأولى...

هلال الحجري

من النصوص الإنجليزية التي تؤكد تأثر شعراء الإنجليزية بالعرب وثقافتهم قصيدة «المقدمة» أو Prelude للشاعر الرومانسي الكبير ويليام وردزورث. وهي نص طويل من الشِّعر المُرسَل يتكون من أربعة عشر كتابا لخَص فيها وردزورث سيرته الذاتية، وقد بدأ كتابتها عام ١٧٩٨ حين كان عمره ٢٨ عاما. ظل يشتغل عليها طوال حياته؛ ولذلك كانت مجهولة لدى العامة حتى نشرت بعد موته بثلاثة أشهر عام ١٨٥٠. الكتاب الخامس من هذه القصيدة يتعلق بقراءة الشاعر للكتب، وفيها وصف مهيب لـ«الحلم العربي» وكتاب «الليالي العربية» أو ألف ليلة وليلة الذي قرأه وردزورث في طفولته.

انتشرت الترجمة الإنجليزية لليالي في جميع الدول الناطقة بالإنجلزية؛ حتى أنها بلغت ثماني عشرة طبعة بحلول عام ١٧٩٣، فضلا عن نشر أجزاء من النص بشكل يصعب حصره في الكتيبات والصحف والمجلات. وكان لهذا الانتشار أثر كبير على أدباء اللغة الإنجليزية؛ سواء في طفولتهم حين دغدغت خيالاتهم قصص الليالي أو في حياتهم الإبداعية حين شرعوا في الكتابة فكان الشرقُ مَعينا لا ينضب لأفكارهم. يقول المؤرخ والكاتب الإنجليزي إدوارد جيبون في سيرته الذاتية التي بدأها عام ١٧٨٩ : «قبل مغادرتي لمدرسة كينجستون، كنتُ على دراية جيدة بكتابين: الإلياذة لهوميروس والليالي العربية، وهما كتابان سيسعدانني دائمًا بالصور المثيرة للأخلاق البشرية والمعجزات الخادعة».

كما أن الشاعر الإنجليزي ويليام بيكفورد (١٧٦٠-١٨٤٤)، مؤلف الرواية الشرقية الشهيرة «الواثق» Vathek (١٧٨٦)، قد قرأ أيضًا كتاب ألف ليلة وليلة في سنٍّ مبكرة؛ ويقول كاتبُ سيرته لويس ميلفيل أن اكتشافه لهذه الحكايات بالصدفة كان له تأثيرٌ عظيم على حياته وشخصيته أكثر من أي حادث آخر: «لقد قرأ هذه القصص وأعاد قراءتَها بشغف، وكان أثرُها عليه قوياً لدرجة أن اللورد تشاتام أمر ليتيس بضرورة إبعاد الكتاب عن الصبي. ولكن هذا الاحتراز جاء بعد فوات الأوان؛ لأنه على الرغم من تنفيذ الإيعاز وحجب «الليالي العربية» عنه لسنوات عدة، فقد استحوذت الحكايات الشرقية على هذا القارئ المُرْهَف العَوَاطف حتّى أنه لم يستطع نسيانها أبدًا؛ لقد أشعلتْ ذِهْنَه الغَضَّ وأسرتْ خيالَه، ولم يتضاءلْ تأثيرُها عليه طوال حياته».

أما ويليام وردزورث، وهو أحد معاصري بيكفورد، فقد كان مفتونًا بالليالي العربية في طفولته إلى حدٍّ أنه كتب عنها شِعْرًا في مقدمته، ويخبرنا عن «ملخص ضئيل للحكايات العربية» كان يراه «كنزًا ثمينًا»، وأنه ادّخَر هو وصديقه في المدرسة مصروفهما لشراء المجلدات الكاملة لليالي وأن تقشّفَهما الحازم باء بالفشل . يقول وردزورث:

«اقتنيتُ منذ زمن طويلٍ كَنْزًا ثمينا،
كتابًا صغيرًا أصفرَ مُجلَّدًا بالقماش،
مُلَخَّصًا ضئيلا للحكاياتِ العربيّة؛
ومِنْ رفاقي الجُدُد،
علمتُ فقط، أن جائزتي النفيسة
كانت مُجَرَّدَ نَحيتةٍ في مَنْجَمٍ هائل،
وأنّ هناك مجلداتٍ أربعة
مَوْسُوقةً كلُّها بالأسرارِ والعجائب،
إنها أمَلٌ صَعْبُ المَنال.
فَوْرًا عاهدتُ صديقًا، مُعْوِزًا مِثْلي،
على تَحْويش ما نَمْلك
حتى يتراكمَ ادّخارُنا المشترك
بما يكفي لشراء الكتاب.
وخلال أشهر عديدة، رغم المُغريات،
حَفِظْنا بالتَّقوى ذلك العَهْدَ،
ولكن شركة الادخار فشلتْ،
ولم نكن أبدًا سادةً لرغبتنا».

hilalalhajri@hotmail.com

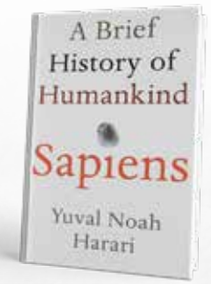

موجز تاريخ البشرية
يوفال نوح هاراري

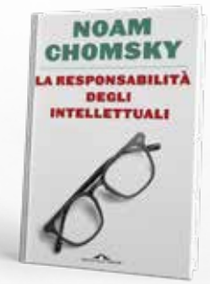

مسؤولية المثقّفين
نعوم تشومسكي

العيش الأكثر بساطة
أوريان سترود

الشريعة الإسلامية..
ليونيد سيوكيانين

جبال صامتة
أيه. بي. جعفر

الثورة الجامعية..
إيريك ليبيك

الفلسفة وأزمة المناخ..
بايرون ويلستون

قاعة الاقتصاد..
فاطمة شيخ

الخطأ في قياس التقدم..
ستيفن جيه ماسكورا

مواقع البناء في التاريخ..
فيديريكو رامبيني

إصدارات عالمية جديدة

صفحة 22 - 24

موجـز تـاريخ البشريـة

يوفال نوح هاراري

محمد الشيخ *

هذا مجمل تاريخ البشرية برواية راوٍ طبَّقت شهرته الآفاق. وما كان راويتنا هذا بالمتنبئ، ولا بالعرّاف، لا ولا حتى بالشيخ الروحي كان؛ وإنما هو ـ حسب ما يذكر عن نفسه المرار العدة ـ مجرد «ملاحظ» ومحض «مراقب» للنوع البشري يسعى، منذ أن كان صبياً، إلى «فهم العالم في جملته»؛ وذلك لا عن طريق «التحليلات التفصيلية»، وإنما عن طريق «المرويات الشاملة». كما يعترف أنه ما كان هو بعالم حفريات، لا ولا بعالم سلوك حيوانات رئيسة، حتى يخوض في ما خاض فيه من تاريخ مُجمل للبشر، وإنما هو مؤرخ لا يقدم جديدا، بل يقدم معارف مشتركة تقديما مستأنفا، أو هو كما يقول المثل الفرنسي الذائع: «يقدم مشروبات عتيقة في زجاجات جديدة».

وقد لجأ، في مجمل تاريخ البشر هذا، إلى «حفظ المسافة» بينه وبين «موضوعه» الذي هو «الإنسان» في مسيرته . وإلى استشراف مصير نوعه هذا . الذي هو النوع البشري المسمى homo sapiens؛ بمعنى الإنسان الذكي النبيه المتبصر المتروي، الذي هو سلف الإنسان كما بتنا نعهده . أمام المخاطر الثلاثة التي أمست تهدده: السطوة التقنية، والانهيار البيئي، والتهديد النووي. أما المشاكل الأخرى التي يتفق أهل السياسة على طرحها . الإرهاب، التفاوتات، الهجرات، الفقر ... . فهي أقل أهمية في نظره. إنما الأولى المشكلات التقنية؛ حيث إن مقاليد التسلط والتسلطن سوف تصير بيد ذاك الذي من شأنه أن يتحكم في المعطيات الشخصية التحكم: تصوروا أنْ يمسي يَعْلَم عنك واحد من سان فرانسيسكو أو من بكين كل شيء لحظة بلحظة: من يوم ولادتك إلى يومك هذا الذي أنت فيه!

وصاحب هذا الكتاب مؤرخ كان قد تخصص في العصور الوسطى، ولا سيما في الحروب، لكنه سرعان ما انقلب اليوم إلى «مبسِّط» لتاريخ البشرية. مأخوذ في وجهه الجُمَلي. يقرأه الرؤساء (أوباما، ماكرون، ميتسوتاكيس ...) في هذا العالم والكبراء (فدرين، زوكربرغ، جيتس ...) سواء، ويصل إلى الجمهور العريض سواء بسواء. وهو ينطلق من فكرة غياب ثقافة علمية حول القضايا الأساس في عهدنا . التغير المناخي، الذكاء الاصطناعي، الهندسة الحيوية . ويقترح أن يعمل «وسيطا» بين «الجماعة العلمية» و«الجمهور الواسع»، مُثرِّباً على «الجماعة العلمية» أنها لا تعرف كيف تُبَلِّغ. إذ من شأن «الإحصاءات» و«المنحنيات» . التي يستعين بها أهل العلم على بيان أغراضهم . ألا تلقى الإقبال من الناس؛ فلا بد من «مروية» تأخذ بألبابهم. ومن أمر «المعلومات» أنها مبثوثة في الطرقات هوامل، والشأن في نضدها في مرويات شوامل: «من أمر البشر ألا ينصتوا اللهم إلا إلى مرويات».

ويروي الكتاب كيف أنه، في خلال ٧٠ ٠٠٠ حَوْل، غيّر نوع تافه من الحيوانات الرئيسات الكوكب تغييرا جذريا. وذلك في مروية طويلة مديدة لتاريخ البشر منذ العهد الحجري إلى عهد جوجل يرويها هاراري بحيوية باذخة موضوعها ملحمة حيوان كان، في البدء، عديم القيمة؛ ثم استطاع أن يهيمن على الكوكب برمته، بل حتى أن يهدد النظام البيئي عبر مسيرته المتذبذبة المتسارعة. وذاك هو تاريخ هذا النوع المسمى «بشرا»: من كائنات قَنَّاصَة لُقَطَة إلى كائنات باتت تهدد بفناء الإنسان نفسه في زمن ما بعد الإنسانية، مرورا بثلاث ثورات معرفية وزراعية وعلمية، رافقتها إمبراطوريات رامت تصنيع العالم. والكتاب أقرب شيء يكون إلى سيناريو . والرجل عاشق للسيناريوهات مولع بها كل الولع، حتى قال عنه أحد أهل الفلسفة بفرنسا: «هو راوية مِفَنٌّ ومفكر هش» . لمغامرة النوع البشري: كنا قناصة لُقَطة خلال عشرات الآلاف من السنين، قبل أن نحيا على الزراعة (منذ حوالي ١٠ ٠٠٠ سنة)؛ ثم حدث أن أصبحنا، بعدها، عُمَّالا مدينيين (منذ ٢٠٠ سنة) ...

كان هراري قد ناقش أطروحته عن الحرب في العصر الوسيط بجامعة أوكسفورد (٢٠٠٢)، وعاد إلى بلده ليشتغل بالجامعة العبرية (القدس). وفي عام ٢٠٠٣ أقرت الجامعة مادة «مدخل إلى تاريخ العالم» تأفف المؤرخون التقليديون من تدريسها؛ بتعلة افتقادها إلى التفصيل وإلى التخصص، وقَبِلَ وحده تدريسها. وبما أنه كان يكره ملاقاة الجمهور، فقد كان يحرر محاضراته في الموضوع وكأنها سيناريوهات، ويوزع منسوخاتها على طلبته، حتى يكُفوا عن التدوين، وينصتوا إليه ويحاوروه. ثم سرعان ما لاقى الدرس نجاحا في الكلية، وبدأ ينتشر بين الطلبة. وقد أوحى إليه ذلك بجمع الدروس في توليفة. وكان أن نشر كتاب «موجز تاريخ البشرية» في طبعته الأصلية عام ٢٠١١، وشهد نجاحا باهرا، وحقق لصاحبه شهرة واسعة. لكنه واجه صعوبات جمة عند الرغبة في نشره في الخارج، ونُشر نشرة محدودة تحت الطلب بترجمة واضعه لم تتعد الألفي نسخة. ثم في عام ٢٠١٣ اقترح ترجمة جديدة بتبويب مستحدث. فكان أن تنافست على نشره ٢٢ دار نشر إنجليزية، بينما لا ناشر أمريكي رغب في ذلك، إلى أن كان ما كان من نشرته الأمريكية التي أعقبها نقله إلى أزيد من خمسين لغة، وبيع منه أزيد من اثنتي عشر مليون نسخة. وها هو يتم إخراجه اليوم سلسلة تلفزيونية؛ فضلا عن رسوم للأطفال ...

في مروية الإنسان الكبرى

الولع بالمرويات أحد نظريات هذا الكتاب الكبرى. إذ سعى إلى الإجابة عن السؤال: تُرَى، من يكون الإنسان؟ وكيف أمكن لهذا الكائن المهين أن يعلو على جميع الكائنات ويتسيد، بل يستأسد؟ والذي عند صاحبنا أن الإنسان أمسى ما أمساه بفضل مَلَكَته التخييلية؛ تلك الملكة التي توفر له إمكان إنشاء «بنيات فوقية مجردة»: من الأديان إلى الأبناك. ومن شأن هذه «التخييلات»، التي يقتدر عليها الإنسان دون سواه، أن تثمر الأفضل، كما من أمرها أن تتمخض عن الأسوأ: من الأول فكرة حقوق الإنسان التي هي محض «خيال» تخيله الإنسان، حسب المؤلف. ومن الثاني نظريات المؤامرة التي بدورها «وهم» توهمه الإنسان. والمشكلة أن عالمنا اليوم، بعد أن عاش على هذه التخييلات ردحا طويلا، طفق يكفر بهذه المرويات. ومشكلة إنسان اليوم أنه نسي أن هذه المرويات إنما جاءت لتخفف من آلام البشرية. إذ فكرة «الأمة»، مثلا، مجرد «تخييل»، لكنها كانت تخييلا نافعا سمح لأسلافنا بالانتقال من طور كائنات قناصة لُقَطَة تعيش زرافات، ولا تلتقي بالآخرين من البشر في حياتها إلا لماما، إلى طور مواطنين متعالقين حيث كل واحد يشكل عضوا في جماعة جبارة تقوم عليها تربيتنا وصحتنا وأمننا. لكن، ها قد استحالت «الأمة» مجرد ضريبة تؤدى إلى شخص غُفْلٍ لا نعرف من هو. وها قد استعيض عن «الأمة» بأدلوجة مضادة للأمة هي الشعبوية التي دعا إليها ترامب ومختلف مسائخه في عالم اليوم... ويروي هاراري تاريخ البشرية المجمل هذا في ثلاث ثورات:

الثورة المعرفية

اقتدر الإنسان على ما لم يقتدر عليه سائر الحيوان: أن يتعاون بأوسع تعاون يكون وأشده مرونة. فإن تعاون النمل والنحل أصلب ما يكون. وتعاون القردة والذئاب أضيق ما يكون. ولو خلي الإنسان، أو عشرة أناس، تلقاء قرد أو عشرة، لتم الظفر لهؤلاء؛ لكن، لو فاق العدد المئين لتعاون الإنسان بما لم ينهض به حيوان. ولو أنزلت مائة ألف قرد في وول ستريت أو ساحة تيانانمن لحدثت الفوضى، لكن لو أنزلت مائة ألف من البشر لوجدوا طريقهم إلى إنشاء تنظيمات. هُوَ ذا ما جعل البشر يغزون الدنيا، وركن القردة في حدائق ومخابر. لكن، ما الذي سمح لأولئك بالتعاون؟ إنه «الخيال» الذي هو قدرة على ابتكار كائنات مجردة موهومة لا توجد اللهم إلا في مخيلتهم (الأرباب والأمم والنقود والحقوق ...). وتلك هي «الثورة المعرفية» التي أعطت إشارة انطلاقة تاريخ البشر. والمقصود بها منعطف في طريقة تواصلنا (ابتداع لغة التجريد) وتفكيرنا (التعاون الاجتماعي). وهو ما أدى إلى إبداع الأساطير والمعتقدات وتوسيع

نطاق ذلك: من القبيلة العشائرية إلى الدولة القومية مرورا بالدولة المدينة وجماعة المؤمنين، وكلها قامت على «أساطير متشاطَرَة» لا توجد اللهم إلا في المخيال الجمعي؛ إذ لا وجود في الواقع لأرباب في الكون ولا لأمم ولا لنقود ولا لحقوق ولا لقوانين ولا لعدالة خارج مخيال بني البشر المشترك. ومنذ قيام هذه الثورة المعرفية والبشر في «واقع مثنوي»: الواقع الموضوعي للأنهار والأشجار والسباع، والواقع المتخيل للأرباب والأمم والجمعيات. وعلى مر الأيام تغوّل الواقع المتخيل على حساب الواقع الموضوعي، حتى صار في أيامنا هذه بقاء الأنهار والأشجار والسباع رهين ألطاف الأرباب والدول وجوجل. هذا وقد ظهرت الكائنات العضوية على وجه الأرض منذ حوالي ٣,٨ مليار سنة، وطفق بنو البشر، وقد ظهروا في شرق إفريقيا، أول ما ظهروا، ثم تفرقوا شذر مذر، يقيمون «ثقافاتهم»، منذ سبعين ألف حَوْل، وينشؤون المرويات إنشاء، ويشكلون عصائب رواة هي القوة الأهم داخل مملكة الحيوان والأخطر والأشرس.

الثورة الزراعية

بدأت الثورة الفلاحية منذ حوالي ١٠ ٠٠٠ سنة بتركيا وإيران وبلاد الرافدين. وقد شكلت، على الحقيقة، القهقرى: لم تُترجم إلى ثورة معرفية، وإنما جعلت حياة الإنسان الزراعي أشقى من حياة الإنسان القناص اللاقط، وصيّرت غذاءه أعوز وأسوأ؛ إذ ما استألفنا. معشر البشر. القمح والرز والبطاطس وإنما هي من استألفنا، كما تسببت في أنحاء من التفاوتات، وزادت من حدة العنف. وثمة وجه آخر للثورة الزراعية، وهو أنها أدت إلى ظهور الحيوانات المستألَفة؛ إذ شيئا فشيئا تم استئلاف حوالي ٩٠ في المائة من الحيوانات الكبرى. مثلا بقي اليوم ٢٠ ٠٠٠ ذئب وحشي تلقاء ٥٠٠ مليون كلب أهلي، و٩٠٠ ٠٠٠ ثور وحشي مقابل مليار ونصف أهلي، و٥٠ مليون بطريق في مقابل ٥٠ مليار من الدجاج. على أن بؤس هذه الكائنات المستألفة بات أشد مما كان عليه وهي مستوحشة. لقد خلفت الثورة الزراعية آلاما لا تقدر ولا تَخفُّ، محوّلة الحيوان من كائن حي إلى آلة منتجة. وتلك إحدى أعظم «جرائم التاريخ».

الثورة العلمية

ازدادت أن قوتنا ازديادا فاحشا وموحشا منذ ١٥٠٠ حَوْل: بتنا أكثر عددا بأربعة عشر مرة، وننتج أكثر بمائتين وأربعين ضعفا، ونستهلك من الطاقة أزيد بمائة وخمسة عشر نوبة. كل ذلك نَمَّ عنه سلطان العلم وسطوته. وقد تميز هذا السلطان بثلاث سمات: ينطلق العلم من الجهل ممارسا للشك، ويستعمل الملاحظة والحسابات، ويكتسب سلطا جديدة وهو يتقدم. أَوَ لم يقل بيكون: إنما المعرفة سلطة؟ هُوَ ذا ما فتح الباب أمام تعالق العلم (النظر) والعمل (التطبيق/التقنية)، وشرع الشارع أمام البعثات العلمية والسلطة السياسية: تحالف العلم والإمبراطورية، وتماثل العالم والغازي.

تُرى، ما حصيلة هذه الثورات الثلاث؟ لقد كيّف التطور عقولنا وأجسامنا مع حياة القنص واللقط، بينما حكم علينا التحول الزراعي، ثم الصناعي، بحياة مضادة للطبيعة. وما من اكتشاف جديد، إلا وما يفتأ يبعدنا عن جنة عدن البعد السحيق. وهكذا، يمكن أن نعيب على الحياة الحديثة أنها تُفقر حواسنا وتُعجزنا عن تذوق اللحظة الحاضرة؛ بحكم أنها باتت تمنحنا اختيارات

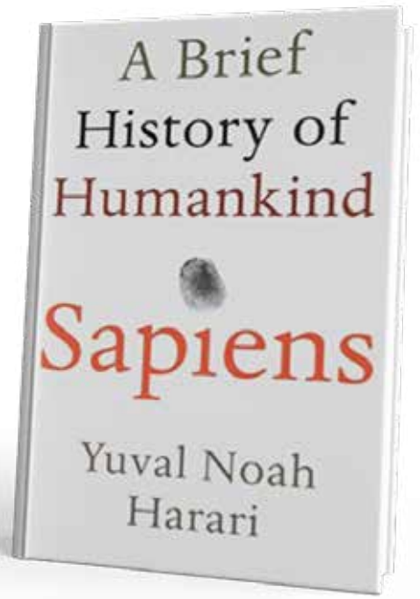

محيرة. لكن، علينا أن نُقرّ أن من مزاياها: تقدم العلم، تقلص العنف، اختفاء المجاعات. على أن كل هذا الذي حصلناه هش؛ ثم إنه تم على حساب الحيوانات الأخرى.

اختفاء الإنسان التاريخي

ها نحن قد انتقلنا في ظرف ٧٠ ٠٠٠ عام من مقام كائن حي تافه إلى مقام التَّرَبُّب على الكائنات الحية الأخرى، عن طريق امتلاك قدرات الدمار والخلق. فهل لنا أن نفخر بذلك؟ وجواب المؤلف: أعتقد، لا. ها نحن ندمر النظام البيئي، ونؤلم الحيوان، وفي الوقت نفسه لا نرضى عن أنفسنا. أكثر من هذا، بتنا لا نعلم إلى أين نحن غادون! أَوَ ثمة أخطر من منزلة غير راضية وغير مسؤولة ولا تعلم ما تريد. والأنكى من هذا كله، ها قد باتت قدرتنا التقنية، لأول مرة في تاريخ البشرية، تتقدم على قدرتنا الأخلاقية. والبادي أننا أضحينا لا نعدم التقنية والصنعة، ولكننا نفتقد إلى البصيرة والرؤية. وها قد بتنا نمزج، المزج الذي لا تُدرك غائلته، بين الحياة العضوية وغير العضوية: مثلا بين السلاح الآلي والحشرات المصنعة للحرب على العدو، وبين العقل البشري والحاسوب من خلال رقاقات توضع في دماغ الإنسان وتحول نشاط الدماغ الكهربائي إلى كلمات. وقبل وبعد، هل يبقى، بعد هذا كله، الإنسان إنسانا؟ يرى هاراري أنه من الممكن أن يختفي الإنسان الذي عهدناه طيلة تاريخ البشرية المديد؛ لكن، لكي ينشأ نشأة مستأنفة في صورة إنسان «مُتَقَنَن» و«مُمَكْنَن» يترك مكان «الإنسان» التقليدي إلى «شيء آخر».

عشر أطروحات أساسية في الكتاب

كان لنا معشر البشر مصير استثنائي بخلاف مصير سائر الحيوانات؛ وذلك بحكم أننا قادرون على التعاون على أوسع نطاق يكون.

وتعاوننا على أوسع نطاق تم بفضل الوقائع التي تخيلناها التخيل (الأمة، المقاولة، النقد ...)، وباتت هي اختراعات تُهَيكل عالمنا؛ بحكم أننا نؤمن بهذه المتخيلات إيمانا جماعيا شديدا.

ما يجمع بين «الفِرَق الطبيعية (=الحيوانية)» (أقل من ١٥٠ عضوا) إنما هو الصلات الحميمية، بينما ما يجمع بين «الفِرَق المصطنعة (=البشرية)» (أزيد من ١٥٠ عضوا) إنما هو الوقائع المتخيلة.

لا زال جسمنا وعقلنا جسم وعقل كائنات قناصة لقّاطة تحيا في قبائل، ولهذا بتنا غير مناسبين للعيش بوفق العيش الحديث.

بصيرورتنا مزارعين وفلاحين مقيمين مستقرين ضحينا بازدهار الأفراد لصالح تطور النوع البشري.

صارت أوروبا الحضارة الأولى في العالم لأنها مزجت بين المعرفة والسلطة.

تجمع المجتمعات الحديثة بين خليط من التأثيرات لدرجة أنه بات من الوهم السعي إلى تحديد سمات هويات ثقافية خالصة.

أنشأت الإمبراطوريات أفكارا وقيما وحقائق متخيلة لصالح فكرة وحدة البشرية وأذاعتها.

كلا؛ ما كنا أبدًا كائنات بيئية؛ وذلك لأننا حولنا الكوكب تحويلا بئيسا منذ البداية.

سعادتنا حالة نفسية لم تغير فيها إنجازاتنا أي شيء: بتنا كائنات أكثر تعقيدا، لكن ليس أكثر سعادة، إنْ لم نكن أقل!

هاراري المتشائل

(المتفائل والمتشائم معا)

ما العمل والحال هذه؟ يؤمن هذا «العدمي الزَّن» بحكمة بودا الثلاثية القائلة: «ثمة حقائق أساسية ثلاث تتعلق بهذا العالم: ما من شيء فيه إلا وشأنه أن يتغير بموصول التغير، ولا شيء من أمره أن تثبت له ماهية راسخة، وما كان أي شيء ليحمل على الرضا الشافي». ولهذه الحيثية، قال بودا: «لا تفعلوا أي شيء إطلاقا». على الرغم من كل متاعب البشرية، يذهب المؤلف مذهبين يكادا يكونان متناقضين عند أول النظر: من جهة، يرى أن البشرية ما حيت في تاريخها يوما أفضل مما تحياه الآن. إذ نبذنا المجاعات والأوبئة والحروب من وراء ظهورنا، حتى وإنْ لم تختف هي بَعْدُ اختفائها النهائي؛ فكان أن أمسى بذلك وضعنا، بالمقارنة مع الماضي، أفضل. وهو يرى، من جهة أخرى، أنه قد أتى حين من الدهر شديد على الحيوانات مبيد لها لم تعهد له مثيلا من ذي قبل؛ حتى انقلب الإنسان إلى «قاتل بيئي بالتسلسل» أفنى نصف كبريات الحيوانات الثديية بالكوكب، وحتى لربما شكل لعنة على الأرض؛ إذ كان ازدهار البشر كارثة على أغلب حيوانات الأرض؛ اللهم باستثناء الجرذان والصراصير. ومن ثم: «لم ينتج نظام الإنسان على وجه الأرض لحد الآن شيئا يمكن أن نفخر به». تُرَى، أنفخر بالتقدم؟ وجواب المؤلف: ما «التقدم» سوى «وهم». أم نفخر بالثورة الزراعية؟ تلك «أعظم فرية». أم هل نفخر بما يسمى «الإنسانية الليبرالية»؟ هذه باتت «ديانة» جديدة للبشرية.

وهكذا، ينتهي «الإنسان الذي عهدناه» من حيث يبدأ «الإنسان المتربب». وذلك عنوان كتاب آخر لهاراري.

الكتاب: موجز تاريخ البشرية

المؤلف: يوفال نوح هاراري

دار النشر: سيجنل بوكس

* أكاديمي مغربي

مسؤوليـــة المثقّفيـن

نعوم تشومسكي

عزالدين عناية *

في هذا الكتاب الذي يُعالج قضايا على صلة بفعل المُثقف ودوره يُعيدنا المُفكر نعوم تشومسكي (من مواليد فيلاديلفيا 1928) إلى ما هو مطروح على المُثقف في الألفية الثالثة. فحقبتنا الراهنة المُتميزة بالسرعة الفائقة والقيم السائلة، أضحت تتطلب مُعالجة في مستوى خصوصياتها التاريخية والسوسيولوجية، وهو ما يلحّ عليه تشومسكي ويُحاول تسليط الضوء عليه حتى لا يغترب المثقف عن مهمّته النبيلة. فهناك إصرار لدى تشومسكي لوضع المفكر في قلب حراك التاريخ لا على هامشه حتى يحافظ فعله على إيجابيته.

يستهلّ المؤلّف كتابه بسؤال لطالما تردّدَ في أوساط المُثقفين على صلة بمسألة الولاء، لأي طرف ينتمي المُثقف وما هي الجهة التي تُحدّد فعله والتزامه وخياراته؟ فما من شك أنّ الأمر قد أشكلَ دائما على المثقف. فهناك شقّ من المثقّفين على أهبة لوضع خبراتهم وقدراتهم في صالح من يملك النفوذ، طواعية ودون إكراه أو إجبار. وغالباً ما يتماهى هذا النوع من المثقفين مع مشروع المؤسّسة الأيديولوجي والسياسي. يغدو المثقف في هذا السياق جزءاً من المؤسسة موجودا بها وعاملا ضمنها، يَصنع ويُروّج مشاريعها في آن واحد. والواقع كما يُبيّن تشومسكي أنّ هناك غنائم يغنمها المثقف من ذلك الخيار، مثل غنيمة الهيبة والامتيازات والنفوذ. وحالة التماهي مع المؤسسة عاشها كثير من المثقفين في الغرب، لا سيما فترة النظامين الفاشي والنازي، أو كذلك مع السلطة الحاكمة «الديمقراطية» في أمريكا، بمناصرة حرب فيتنام وموالاة خيار المؤسسة الاستراتيجي. وهو ما كان جليًا في تاريخ المثقفين في إيطاليا وألمانيا وأمريكا، فلا يمكن الحديث عن تاريخ المثقف المناوئ دائمًا، بل عن المثقف المُوالي أيضًا، حيث يرتبط كيان المثقف بالمؤسسة. بَيْد أنَّ ذلك التماهي قد يتعرّض أحياناً إلى اهتزاز وارتباك فيخلّف انشقاقا، ويتحول المثقف من جهة إلى أخرى ومن ولاء إلى نقيضه. تلعب المراجَعة دوراً محوريا في هذا التحول، وهو عادة ما يكون بناءً على تروٍّ وجراء موازنة. وكما يُبين المؤلف أنّ المثقفين غالباً ما تكون خياراتهم الجوهرية مستمدّة من قِيم خُلقية ترفض الزيف، ومن مبادئ عقلية تستند إلى موضوعية تناقض الخديعة، ومن بنية منطقية تنفر من اللامعقول، بما ينطبق عليهم نعت «المجانين المثاليين» كما يُسميهم. في حين تستند خيارات المؤسسة إلى رؤى براغماتية، وإلى مناورات مصلحية، وإلى تحالفات ظرفية ودائمة تمليها الضرورة، وهو ما يخلق نوعا من التضارب بين الطرفين ويولّد انخراما في التعاقد.

لكن مُهمّة المثقف النابعة من طبيعة الحقل العامل فيه، كما يبين تشومسكي، هي مهمة كيانية مرتبطة بطبيعة دوره وشغله، تجعل منه راصدا للّحظة التاريخية وإن تبدّلت الأوضاع والأدوات. وفي ضوء ذلك الحضور يكون المثقف جزءاً من فعل عام لا يتحدّد بشخصه، بل يشمل مجالا أوسع على صلة بحركة الاجتماع، وطبيعة الثقافة السائدة، وتطلعات الكيان الجمعي ذات الأبعاد الاقتصادية والتحررية.

تحت معنون «مهنة المثقف» يستعيد نعوم تشومسكي مناقشة المهام الجوهرية الملقاة على عاتق المثقف من خلال طرح جملة من الأسئلة: فهل المثقف هو مجرد منفّذ للتعليمات والأوامر أم هو مُتأمل في الخيارات الكبرى بفرز المصلحة عن المفسدة؟ وهو في الحقيقة دورٌ نابعٌ من طبيعة مهمّته، تلك المتمثّلة في النقد البنّاء الذي يأتيه بغرض التصويب لا لمجرّد النقد العبثي. فالمثقف المسؤول لا يُنبّه من مضار خيارات، ولا يحذّر من خطوات خاطئة لأجل الظهور والمشاكسة، وإنما لما يسكنه من وازع المصلحة والسعي الدائم نحو تحقيق الأفضل والأنفع للجماعة التي ينتمي إليها، سواء في دائرته الوطنية أو في شمولها الكوني. وفي ضوء ذلك الفعل تتلاقى محفزاته مع خيارات العدالة والخيرية والإنسانية، وهو ما يَضع المثقف في قلب حراك التاريخ. ضمن هذا السياق يستحضر تشومسكي الهاجس الذي رافق الكاتب التشيكي فاتسلاف هافل، قبل اعتلائه منصب الرئاسة، في مسعاه إلى مناصرة القيم المبدئية والخيارات المصيرية التي تطلّعت لها الجماهير لأجل بلوغ مطامح العدالة والخيرية والحقوق.

في هذا السياق يحاول تشومسكي تحليل جوهر مسؤولية المثقف وفيما تتمثّل، وباستحضار المغامرات السياسية لجملة من الدول الغربية الرأسمالية في التاريخ المعاصر يَلوح كثير من المثقفين الغربيين منشقين عن رؤية سائدة شاءت لها الآلة السياسية الرواج. يقف المثقفون «المبدئيون» -كما يطلق عليهم- ضدّ الزيف المروَّج عبر آلة دعائية قوية. لكن كما يَتبيّن لتشومسكي ليس صفّ المثقفين موحّداً، فغالبا ما تعتريه اختراقات وانشقاقات من الداخل. وفي دراسته لجبهة المثقفين الممثلَنة، يَعُدّ الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر أبرز وجوه هذا الخلل والاختراق. فقد صرّح فيلسوف الرايخ في العام ١٩٣٣ بتصريحات لصالح خيارات هتلر، وانحاز إلى موقف الدولة من خلال اعتبار الحقيقة في صف من يتطلّع إلى جعل الشعب قوياً وآمنا، وهو خيار سلطة «الفهرر» في ذلك العهد. إذ الملاحَظ أنّ المؤسسة السياسية في النُّظم الشمولية عادة ما تتعلّل بالحفاظ على القيم المثلى والمصالح العُليا: الديمقراطية والحرية والعدالة، وهي من تنتهك هذه المُثل والقِيم. يضرب تشومسكي أمثلة من فضاءات أخرى عن هذا التعليل الزائف، بشأن حالة الاحتلال الروسي لأفغانستان وما رافقه من تهديم هيكلي لبنية المجتمع، ثم يستعرض المغامرة الأمريكية في العراق من أجل إسقاط نظام صدام حسين وزعزعة بنية العراق وإفساد مخزونه القِيَمي. وفي كلا المسرَحيْن رُفعت الشعارات ذاتها، وإن تبدلت طبيعة القوة الغازية من شيوعية إلى رأسمالية، فكلتاهما زعمت الدفاع عن قِيم ممثلَنة: الاشتراكية والديمقراطية. استطاعت كلتا الآلتين العسكريتين، السوفييتية والأمريكية، تهشيم بنية مجتمعين لا يزال ما لحق بهما من أضرار متواصلا إلى الراهن وإن مرّت عقود على الانسحاب. في الأثناء يُبرز تشومسكي دور المثقفين الرافضين للحرب في كلا المجتمعين السوفييتي والأمريكي. فإن يكن المثقف في روسيا الشيوعية محكوماً بقبضة صارمة لا تُبيح توجيه الانتقاد أو مناقشة الخيارات سوى من داخل مؤسسة الحزب الشيوعي، فعلى العكس من ذلك وُجِد هامش أوسع وأرحب تحرّك فيه المثقف الأمريكي «المنشقّ». ولهذا استطاع المثقف الأمريكي أن يلعبَ دوراً أفضل من نظيره السوفييتي في التنديد بالحرب في العراق وبيان خطأ الخيارات وزيف التبريرات. وفي هذه النقطة يعالج

تشومسكي ضرورة تنزيل دور المثقف ومسؤوليته ضمن الإطار السياسي-الاجتماعي الصائب، حتى لا يُتَّهم المثقف بالصمت والتواطؤ أو المشاركة في الانتهاكات. فأحياناً تكون آلة الرقابة والمحاصَرة الإعلامية مؤثرة في دور المثقف وتَحول دون تقديم أي سند أو دعم. استطاع المثقف في الولايات المتحدة أن يجد هامشا في الداخل، ولو ضئيلا، لانتقاد خيارات الحكومة في الحرب على العراق، في حين لم يجد نظيره الروسي ذلك الهامش لبيان خطأ خيار الدولة في أفغانستان سوى في المنفى خارج روسيا، مع تعذر تحقيق انتقاد من الداخل. وإن كان ثمة من يعارض هذا الرأي ويَعتبر أن الضغط المسلَّط على المثقف في تاريخ أمريكا المعاصرة لا يقلّ شأنا عن الضغط المسلط في روسيا الشيوعية. يورد جون كواتسوورث في كتاب «تاريخ كامبريدج للحرب الباردة»، من العام ١٩٦٠ وإلى غاية سقوط الاتحاد السوفييتي ١٩٩٠، أنّ عدد المساجين السياسيين والملاحَقين والمنشقين ممّن حُكم عليهم بالإعدام في الولايات المتحدة قد فاق عدد المتضرّرين جراء تُهم مشابهة في الاتحاد السوفييتي وممّن داروا في فلكه بشكل كبير.

في القسم اللاحق من الكتاب المعنون بـ «مثقّف جديد لزمن جديد» يتساءل نعوم تشومسكي عن صنف العلوم القادرة على دعم المُثقفين في مقاربتهم النقدية، مبرزاً أن العلوم الإنسانية والاجتماعية والدينية تقف في صدارة تلك الأدوات المعوَّل عليها في دعم المثقف في أداء دوره. لكن تبقى الإشكالية الماثلة في خَلْق تيار نقدي داخل هذه الحقول البحثية جريء في التنديد بالتجاوزات والانحرافات، وقادر على بناء خطابات معرفية واقعية ومنطقية قابلة للرواج والمساندة. إذ لا يمكن القول إن هذه العلوم فاعلة بذاتها وبشكل مستقلّ في عرض الحقائق، ولكن تبقى في حاجة إلى توظيف صائب يدعم قضايا محقّة. والسؤال المطروح ضمن هذا السياق: ما هي القضايا العاجلة التي ينبغي على المثقف الانخراط فيها؟ يبدو سؤال تشومسكي سؤالا عسيراً في زمن مأزوم على جميع الأصعدة. ففي ظل هيمنة قطب واحد على السياسة الدولية، وتراجع الحس النقدي الذي ساد في ستينيات القرن الماضي وإلى أواخر التسعينيات، في الأوساط الأكاديمية، تكدست القضايا المؤجلة، مثل قضايا الاغتراب الثقافي، واحتواء المثقفين والأكاديميين، وإلهاء الباحثين بمُعالجة قضايا بعيدة عن مشاغل الناس، وبثّ ثقافة الولاء للمؤسسة في أوساط المعنيين بالثقافة، واختلاق قضايا ثانوية لتغيير وجهة المثقف بدل الانشغال بالقضايا الجوهرية، شكلت كلّ هذه العناصر وغيرها تعطيلا لدور المثقف إن لم نقل انحرافا بوجهته. ولذلك يبدو المطروح على المثقفين بإلحاح وهو

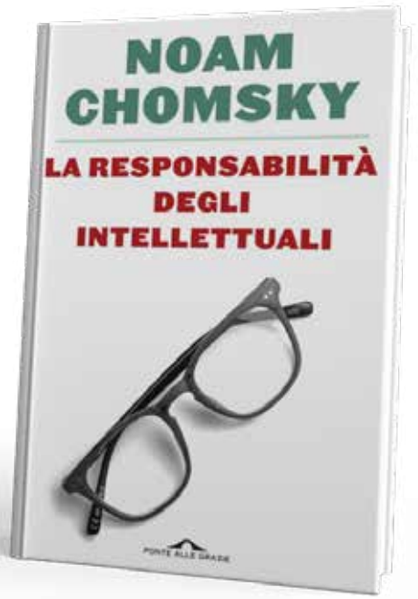

إعادة بلورة مشروعهم النقدي في ظلّ تحول العالم وتعولم قضاياه.

ولعل من المثالب البارزة التي ينبّه إليها تشومسكي وهي أنّ جبهة المثقفين غالبا ما فشلت في توحيد صفوفها في مواجهة صنّاع الحروب. فقد شهد القرن الواحد والعشرون حروباً متنوعة خلّفت دمارا هائلا لم يوفق المثقفون في استخلاص العبر منها. فلطالما تواطأ المثقفون مع إحدى الجبهات أو بقوا في منطقة محايدة دون إبداء موقف أخلاقي أو مبدئي. ويبين أن هذا الوضع غيْر الموحد في مواقف المثقفين هو عائد بالأساس إلى أنّ كثيرا منهم قد صاروا أداة من أدوات المؤسسة، وافتقدوا إلى تلك الخصوصية المتحررة من ضوابط المؤسسة التي تضمن للمثقف استقلالية الرأي والموقف. ينحو تشومسكي باللائمة على الدور السلبي الذي لعبه المثقفون في الترويج للأيديولوجيات، وفي تقديمها كسُبل للخروج من الأزمات، وهي في الحقيقة أُطر لاعتقال أذهان الناس وتفكيرهم ضمن ضوابط محددة وضمن مفاهيم بالية تستهدف خلق رأي عام ومنظور موحّد لا يدعم سوى خَلق حشْد موسّع منضبط ضمن مسارات معينة. ينتقد هذا الأسلوب المنساق ضمن تلميع بعض الأيديولوجيات وترذيل أخرى، وهو ما أفقد المثقف دوره التنويري والتصحيحي. فالمثقف المسؤول والحامل لهمٍّ إنساني هو ذلك المثقف المتملّص من تلك الضوابط الأيديولوجية، والباحث عن بناء فكر مستقلّ لا ينضبط سوى بدعم تحرر الإنسان المادي والذهني، بعيدا عن إضفاء القداسة على المتوارين خلف الخيارات الاقتصادية والسياسية الباحثة عن تدجين البشر، وعلى هذا الأساس كان

النداء بانتهاء زمن الأيديولوجيات وموت الأيديولوجيا. ثمة تبشير بعصر متحرّر من الأيديولوجيا شريطة أن يمتلك المجتمع حسّا نقديا وقدرة على فهم ألاعيب المتحكمين بالعقول والموجهين لمسارات الناس وأذواقهم، ومن ثَمّ حركتهم وفعلهم في التاريخ. إذ لطالما توجّهَ نقد للمثقف، من قِبل الأيديولوجيات، بوصفه فوضويا وخصما للانضباط، وهي التهمة التي حدّت كما يبيّن تشومسكي من دور المثقف النقدي الرافض لأنْ يتحول إلى آلة عمياء تدعم الاستغلال وانتهاك كرامة البشر. فبعد انهيار الشيوعية وتفرّد الرأسمالية بقيادة العالم على مستوى اقتصادي، بات الترويج لدولة «الوال فار» (دولة الرفاه)، وهو مصطلح خادع، كما يرى تشومسكي، تغيّر فيه ثوب الرأسمالية ولم يتغير فيه جوهرها الاستغلالي. ولذلك باتت المجتمعات الغربية أكثر المجتمعات التي تعاني شرائحها الوسطى والدنيا من البطالة، ومن التسريح من العمل، ومن الضغوطات الاجتماعية. ولذلك كان مفهوم «دولة الرفاه» الذي رفعته الرأسمالية هو في الحقيقة بحثا عن هدنة لاستعادة الرأسمالية أنفاسها. وقد رُفِع الشعار في دول الجنوب دون دراية بخلفياته العميقة، التي لم تسفر سوى عن تحويل شعوبها إلى مجرد أيد عاملة زهيدة الثمن لأجل خدمة نظام رأسمالي عالمي. لقد ازدادت الأوضاع تدهورا في كثير من دول الجنوب، في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، حتى أصبح البحث عن خلاص عبر الهجرة هو الملجأ.

يخلص تشومسكي في خاتمة الكتاب إلى أن المثقفين ما عاد بوسعهم العمل فرادى، فقد تغيرت الأدوات والأوضاع، وبات العمل المطلوب هو العمل الجماعي الهادف. ثمة مأسسة للعمل الثقافي تتطلّب الانضباط ضمن مشاريع وبرامج تستهدف بلوغ أهداف محددة. والأمر لا ينطبق على قطاع المثقفين وحدهم، بل على الإعلام والاقتصاد والساسة، وغيرها من القطاعات الفاعلة. لذلك يتوجب على المثقف اليوم التدرب على هذا المناخ الجماعي الجديد في العمل الثقافي ولا يهدر طاقته.

الكتاب: مسؤولية المثقّفين.

إعداد: نعوم تشومسكي.

الناشر: بونتي ألّلي غراسيه (ميلانو) «باللغة الإيطالية».

سنة النشر: 2021.

عدد الصفحات: 125 صفحة.

* أكاديمي تونسي مقيم بإيطاليا

البحث عن حياة أكثر بساطة
تحليل سوسيولوجي للتباعد المعياري
أوريان سترود

سعيد بوكرامي *

إن تغيير أنماط الحياة في القرن الحادي والعشرين ليس مجرد نزوة فردية، ولكنه ضرورة جماعية لمواجهة التحديات البيئية العالمية. ومع ذلك، فإن تغيير الحياة اليومية للفرد من أجل العيش بنمط أكثر بساطة هو أبعد ما يكون عن الوضوح وينطوي على تحول عميق في المادة والهوية. لا يتعلق الأمر بتغيير عادات الاستهلاك الخاصة بنا فحسب، بل يتعلق أيضًا بتغيير العمل والتطلعات الخاصة والعلاقات الاجتماعية بحيث تعكس وتدعم هذا التغيير في الحياة البديلة.

من خلال تحليل تجربة أولئك الذين يحاولون العيش بأنماط أكثر بساطة، يسلط هذا البحث الجديد الضوء على عملية التباعد المعياري التي يخوضها هؤلاء الأشخاص، لكي يستكشف التغييرات التي تحدث في حياتهم اليومية وتداعيات اختيارهم لهذه الحياة البديلة على تفاعلهم الاجتماعي، والتزاماتهم الشخصية و نظرتهم إلى العالم على المدى القصير والبعيد.

إن تغيير الحياة والذهاب نحو مزيد من بساطة العيش في عالم مضطرب ومتفاقم هو دائمًا نوع من التشكيك في علاقة الإنسان بالنموذج الشائع. تعتبر هذه النقلة النوعية والقبول بالتغيير معركة خوضها شاق وطويل، لأن الهدف النهائي ليس ثابتًا ولا واضحًا؛ لأن من يوافق من الأشخاص الذين يختارون هذا الخيار للعيش في مرحلة انتقالية، والمضي قدمًا نحو مستقبل يجب عليهم باستمرار اختراع حياة بديلة على طول الطريق الشاق.

هل يمكن الاستمرار في العيش دون القلق بشأن مستقبل الكوكب وبقاء البشرية؟ ليس السؤال جديدا لأن جائحة كوفيد -١٩، عززت الشعور بالدهشة، والصدمة الذي عجل بتنشيط الوعي بقضايا المناخ والبيئة. و يبدو أن الوعي بهذه القضايا قد أثبت نفسه بالفعل باعتباره القضية المركزية في تحول المجتمعات المعاصرة. وفي هذا السياق، كرست عالمة الاجتماع أوريان سترود عملها المهم لتفكيك وتحليل التحولات المجتمعية الناتجة عن إشراك عدد متزايد من الأفراد في أسلوب حياة أكثر ملاءمة من حيث تأثيره البيئي. تتبنى المؤلفة المفهوم الاجتماعي لـ «التباعد» الذي نظرت له نوربرت إلياس لشرح مفهوم «الالتزام» الذي لا يعتبر هنا نقيض (التباعد)، ولكن كرفيق أو «دافعين يتعايشان بشكل دائم» (ص ٤).

تستند الأطروحة الرئيسية على دراسة معمقة لفئات عديدة من الأفراد الذين اختاروا إبعاد أنفسهم عن الأعراف الاجتماعية السائدة، والتي ترتبط ارتباطًا مباشرًا بالاعتقاد في النمو الاقتصادي اللانهائي. هذه الأعراف الاجتماعية، التي تُترجم إلى أوامر للاستهلاك والتهافت لتحقيق النجاح الشخصي، تعمل في البداية بمثابة إحباط قبل استخدامها كنماذج مضادة لتصميم أنماط حياة بديلة. يستند الكتاب إلى استطلاع أجرته المؤلفة وهو جزء من أطروحتها للدكتوراه بين عامي ٢٠١٢ و ٢٠١٥ (ص ٢٤٩) وهي تتناول ثلاثة حقول مختلفة. الأول قرية أرديشوا البيئية الكائنة بفرنسا، التي تضم حوالي ثلاثين مسكناً ومدرسة بديلة. والثاني عبارة عن مبادرات مختلفة للمواطنين في سويسرا وإنجلترا وفرنسا، مستوحاة من حركة المدن التي تمر بمرحلة انتقالية، والتي بدأت في عام ٢٠٠٦ في إنجلترا بقيادة روب هوبكنز. وأخيرًا أجري الجزء الثالث من الاستطلاع مع حوالي خمسة عشر فردًا في سويسرا يتميزون بالتزام طوعي وجذري بتغيير نمط الحياة «للانتقال نحو مزيد من البساطة» (ص ٢٥٢).

هذه الحقول الثلاثة ليست موضوع معالجة محددة ومتباينة في الكتاب، بل تتم معالجتها لإثبات أن الأفراد المنتمين إليها يعيشون تجربة مشتركة من الانخراط في عملية تباعد اجتماعي تعتبر ظاهرة اجتماعية معاصرة. كما ينير ملحق منهجي بصيرة القارئ حول اختيار هذه الحقول الثلاثة، لا سيما فيما يتعلق بتحديد المفاهيم الاجتماعية المتناقضة التالية (ص ٢٥٠): الجماعي مقابل الفرد، والانفصال مقابل الاستمرارية، وأخيرًا الاندماج مقابل التهميش.

عنونت المؤلفة القسم الأول من الكتاب بـ «التباعد بواسطة الحياة التقليدية». يمكننا في البداية وقبل كل شيء سبر جوهر التغييرات التي حدثت من حيث الطعام أو التسوق أو التنقل أو العمل، ليس فقط كتطور للتنظيم اليومي لأسلوب الحياة، ولكن أيضًا كمسارات تولّد تحولًا عميقًا في الهوية. هنا يعتبر وصف عملية الانفصال عما أسس هوية الفرد على أنها رحلة يجد فيها كل شخص طريقه من خلال الجمع بين قرار القطيعة أو الاستمرارية. إن الوجه الاجتماعي للأشخاص الذين ينخرطون في عملية التباعد المعياري هي موضوع معالجة محددة؛ تؤكد أوريان سترود أن الاتجاهات التي يتشاركها على نطاق واسع علماء الاجتماع تبرز هيمنة الطبقات الوسطى، مع تقديم العديد من الفروق الدقيقة والتوضيحات. تتناول المؤلفة تحليل إيملين دو بوفر، التي تعتبر أن الأشخاص الذين يحاولون الإقدام على مزيد من البساطة يتمتعون عمومًا «بالموارد المعرفية للمعلومات والتفكير الشمولي» (ص ١٦). بالنسبة إلى أوريان سترود فإن السكان المدروسين لا يتميزون برأس مال اقتصادي كبير، ولكن بمستوى تعليمي أعلى بقليل من المتوسط وخاصة من خلال القدرة على اكتساب المعرفة التي طوروها أحيانًا من خلال المشاركة في شبكات الناشطين بيئياً واجتماعياً.

بعيدًا عن هذه التحليلات الكلاسيكية، فإنَّ أحد المقترحات الأصيلة للعمل هو ما يتعلق بـ «اللحظات الأساسية لمسارات التباعد المعياري» (ص ٢٤) حيث نكتشف أن فترات عمرية مُعينة (الدخول في سن البالغين، والأبوة، والتقاعد) وبعض الأحداث (الانفصال الزوجي، المشاكل الصحية، الصعوبات المهنية) تؤدي إلى تغيير في نمط الحياة. وقد استثمرت الكاتبة هذه التغييرات التي تحدثها الأحداث والتحولات في بعض الحالات كفرصة لاستكشاف ممارسات جديدة تتوافق مع التطلعات الكامنة للأشخاص منذ مدة طويلة. كثيرًا ما يوصف التغيير في النظام الغذائي بأنه «بوابة للدخول» في عملية مقارنة مع تعقيدات الحياة السابقة حيث يدفع البحث عن تماسك في نمط حياة جديد الأفرادَ الذين ينخرطون في عملية

التغيير إلى استبدال جوانب أخرى من حياتهم اليومية بجوانب أخرى بديلة.

في بعض الأحيان يكون اختيار نظام تعليمي بديل (العودة إلى تجربة مونتيسوري أو شتاينر) هو الذي يشكل «بوابة الدخول» لتغيير الحياة تغييرا قد يكون جذريا. مهما كان مجال التغيير الأول، فإن المؤلفة تسلط الضوء على القوة الدافعة للتغيير إلى نمط آخر والالتزام بعملية «تولد تحولات عميقة ومتعددة في أنماط الحياة» (ص ٦٦). إن مسألة العلاقة بالعمل وحدها تمثل التوترات والصعوبات التي يجب أن يواجهها الأشخاص الذين ينخرطون في نمط حياة بديل، ولا سيما تلك الناتجة عن خيار التوفيق بين الرغبة في التغيير الجذري والبقاء في المجتمع الأصلي ٩١).

يقترح القسم الثاني من الكتاب المعنون بـ «التحول المعياري» مراجعة مجموعة من المفاهيم التي تنبثق من تحليل عملية التباعد الموصوفة أعلاه. نجد أولاً مسألة العلاقة بالجماعة، والتي تتميز برعاية خاصة تُمنح للانفتاح على أكبر عدد من الأفراد، ولكن أيضًا من خلال وجود اختيار ضمني قائم على قدرة الأفراد على التخلي عن علامات اجتماعية مميزة. مثل تلك المرتبطة بنمط الاستهلاك الذي يعتبر غير مسؤول وخارجا عن قواعد التغيير. يُفضل تطوير «المعايير العملية» على «القيم» ذات الدلالات الثقافية المبنية على المصالح المفرطة. وبذلك تتوافق هذه القواعد مع «الضوابط الاجتماعية الدقيقة، غير المرئية، والضمنية، والخفية» (ص ١٤٩) ؛ وعندما تكون المعايير إيجابية، ترتبط الممارسات بالطبيعة والثقافة الروحية المستوحاة من حكمة الأجداد أو التراث الفكري والروحي الإنساني. لكن عندما تكون سلبية، فقد تتعلق هذه المعايير بأشكال الاستهلاك الجماعي والترفيه المفرط. يستخدم مصطلح «جماعة»، في هذا السياق، كبديل عن تسمية «المجتمع». بالنسبة للمؤلفة، فإن رفض الاندماج في «المجتمع» ليس فقط منظورًا فرنسيًا مرتبطًا بالاعتبارات اللغوية والثقافية، ولكنه أيضًا ترجمة لاختلاف رئيسي، لأن هذه المجموعات «تريد تواصلا ملتزما بين الأفراد بدلاً من شكل متجانس لهوية بديلة وهجينة» (ص ١٦٣). عندما تسهب أوريان ستروود في دراسة مسار الأشخاص الذين ينخرطون في نمط حياة بديل، نكتشف أن هذه ليست تشعبات بسيطة لأنها لا تسعى بالضرورة إلى وضع مستقر جديد. على العكس من ذلك، فهؤلاء اختاروا السماح لأنفسهم بالاسترشاد بتجارب متعددة دون أن يكون لديهم هدف محدد ودقيق

يسعون لبلوغه. تستخدم المؤلفة نظرية الفعل الشعري التي اقترحها مارك هنري سوليت لتشرح كيفية بناء السكان المدروسين لعملهم في الوقت الحاضر من خلال قبول الحالات الطارئة المرتبطة بشعور عام يسوده الارتياب في الأحداث المستقبلية. تتأسس هذه النظرية من خلال تراكم خصائص محددة، نذكر منها على سبيل المثال: البناء المتزامن للأهداف والموارد، وإنشاء أشكال من الشرعية أثناء العمل، والاستثمار الكامل في العمل الفردي (ص ١٩٤).

تشرح أوريان ستروود في خاتمة الكتاب كيفية تحول عملية التباعد إلى نموذج انتقالي. وتشير إلى أن الانتقالية هنا تعني البُعد التطوري والمفتوح لالتزام الأفراد بتغيير الحياة. ثم ينتهي العمل باقتراح «التخلي عن السياسي» أي «ما المقصود بأن تعيش، أو تستهلك، أو تتنفس، أو تتحرك، أو تتواصل وعلاقتهم بالسلطة» (ص ٢٣٦). يشكل الملحق المنهجي مادة ثمينة للغاية تكشف من خلال مقاربة أوريان ستروود عن «حركة مستمرة بين الترسيخ في الواقع والتصور المفاهيمي» والتي يمكن أن تذكر في نواح معينة بمسار الأشخاص الذين كانوا موضوع عملها (ص ٢٦٣).

وإذن من خلال ما سبق يبدو واضحا أنَّ الكتاب يبين كيف أن أولئك الذين ينخرطون في تحول نحو نمط حياة أكثر بساطة ينأون بأنفسهم عن بعض المعايير الاجتماعية ليطوروا ليس حياتهم اليومية فحسب، ولكن أيضًا رؤيتهم للعمل، وروابطهم الاجتماعية وهويتهم الشخصية. إن تغيير أساليب الحياة في القرن الحادي والعشرين ليس مجرد نزوة فردية عابرة، بل ضرورة جماعية لمواجهة التحديات البيئية العالمية. ولكن تغيير حياة الفرد اليومية إلى حياة أكثر بساطة أبعد ما يكون عن الوضوح، لأنه يؤدي إلى تحول مادي وهوياتي عميق. إنها ليست مسألة تغيير عادات الفرد الاستهلاكية، بل هي أيضا مسألة تغيير عمله وطموحاته وعلاقاته الاجتماعية بحيث تعكس وتدعم هذا التغيير في الحياة ومن خلال تحليل تجربة أولئك الذين يطمحون إلى عيش أكثر بساطة، تتجلى الآليات المتحكمة في عملية الابتعاد المعياري التي يشارك فيها هؤلاء الأفراد. و كذلك ما يتغير في حياتهم اليومية وما يخلفه اختيار الحياة الجديدة من تأثير على تفاعلاتهم الاجتماعية والتزاماتهم الشخصية وتفكيرهم ومنظورهم للعالم. إن تغيير حياة المرء لتصبح أكثر بساطة في عالم يزدادا تعقيدا وتشابكا وتواصلا، يطرح الكثير من الأسئلة عن علاقة الفرد بالأنماط المعيارية. وهذا يعني تغيير النموذج وقبول التغيير كرفيق في الطريق نحو حياة أفضل؛ لأن الهدف النهائي ليس ثابتا ولا بديهيا، فالناس الذين يختارون هذا الخيار يوافقون على العيش في مراحل انتقالية، قد تكون في البداية صعبة وقاسية لكنها تنشد التحول الإيجابي نحو مستقبل أكثر بساطة واستقرارا وأمانا.

نستنتج في الأخير أن الكاتبة لم تشر إلى قضية النوع الاجتماعي رغم أهميتها فيما يتعلق بقضية التحول البيئي، والتي أدت مع ذلك إلى ظهور منجز مهم في العلوم الاجتماعية في السنوات الأخيرة. كما كان يمكن أن تستفيد الكاتبة من عمل جينيفيف بريفوست، التي خصصت فصلًا مهمًا للنسوية البيئية، وما تطرحه من قضايا تهتم بضرورة تغيير أنماط العيش لضمان مستقبل آمن. يمكن القول أن الكتاب إضافة معرفية مثيرة لاهتمام القراء الذين يرغبون في تعميق معرفتهم عن العيش البديل كفلسفة لحياة أكثر بساطة وأقل تعقيدا واضطرابا و أوهاما.

الكتاب: العيش الأكثر بساطة: تحليل سوسيولوجي للتباعد المعياري

المؤلف: أوريان ستروود

دار النشر: كيبيك، جامعة لافال، «علم الاجتماع المعاصر» كندا.

سنة النشر: 2021

عدد الصفحات: 280 صفحة

اللغة الفرنسية.

* كاتب ومترجم مغربي

الشريعة الإسلامية وحوار الثقافات في العالم الحديث

ليونيد سيوكيانين

فيكتوريا زاريتوفسكايا *

صدر مؤخرا لكبير المختصين في الفقه والشريعة الإسلامية في روسيا، أستاذ العلوم القانونية والباحث في معهد الحقوق والقانون التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ليونيد سيوكيانين، كتاب بعنوان «الشريعة الإسلامية وحوار الثقافات في العالم الحديث» وهو بحث معمق، متعدد الأوجه، يقع في نحو 700 صفحة. يضمّ العمل أجزاءً كثيرة، يتطرق كل منها إلى أسئلة تتراوح بين النظرية والتاريخية وأخرى آنية ومُلحة، ولكل منها قابلية أن تصبح بحثا مستقلا، نذكر منها: «الثقافات القانونية الإسلامية والأوروبية: التفاعل والتعارض»، «الفكر القانوني الإسلامي ومشاكل العصر الحديث»، «العولمة والعالم الإسلامي»، «الربيع العربي والفكر الشرعي الإسلامي»، «الإسلام والأقليات المسلمة في أوروبا»، «الثقافة الشرعية الإسلامية وروسيا» وغيرها من المواضيع.

وباستثناء موضوع يتعلق بإمكانية (أو استحالة) ممارسة الشريعة الإسلامية في روسيا بطريقة دمجها بالنظام القانوني المعمول به، فإن الباحثين العرب وزملاءهم الأوربيين قد تناولوا، بهذا المقدار من التركيز أو ذاك، كل المواضيع الأخرى. أما الدكتور سيوكيانين فيقدم عرضا تاريخيا لمحاولات ممارسة الشريعة الإسلامية في الأراضي الروسية وخاصة في منطقة القوقاز التي ضمتها إليها. كما ويتأمل في الأسس القانونية لهذا الموضوع، ويكشف عن إشكالياته وتعقيداته. إذن فنحن أمام بحث شامل وجريء.

إنَّ الشرح الذي يسوقه المؤلف في عدم تأصل الشريعة الإسلامية في روسيا المُعاصرة، وذلك على الرغم من مكونات الجزء المسلم من مجتمعها، ينطلق من عدم الرغبة في كشف إيجابيات الشريعة الإسلامية العامة، وعدم معرفة كيفية استخدام آلياتها التي تصب لمصلحة المجتمع الروسي ككل. يشير الكاتب متأسفًا: «من اللافت للنظر أنه من بين جميع مظاهر الإسلام المختلفة، ينصبّ التركيز عادة على جوانبه المُرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالسياسة والدولة والقانون. حتى عند تحليل المكوّن الأيديولوجي للإسلام، يتم التركيز على المفاهيم والنظريات التي تقف وراء النشاط السياسي للحركات والمنظمات الإسلامية فقط. فضلاً عن أن الحديث هنا يدور أساسًا حول الأنشطة ذات التوجه الراديكالي (...) لا شك أنهم يواصلون في روسيا مناقشة قضايا الاقتصاد الإسلامي بشكل حيوي، ولكن البارز أيضًا أن عددا من الباحثين الروس يفضلون عدم الكشف عن ريادة الأعمال الإسلامية، وطرق ممارسة الأعمال التجارية في حل المشكلات الاقتصادية للمجتمع الحديث، بل يقتصرون في مناقشاتهم على ما يسمى بمؤسسة الحوالات (تحويل القروض) لتمويل التطرف». (ص: ٦٦١)

هل يصحُّ اختزال الإسلام بالظاهرة المذكورة؟ بالطبع لا، ليس لأننا نتحدث عن واحدة من أكبر الديانات في العالم فحسب، بل لأن الإسلام ليس مجرد دين بالمعنى القاموسي للكلمة، فهو أيضًا ثقافة وأسلوب حياة وحضارة. لذلك فالقانون والمؤسسات الاجتماعية جزء لا يتجزأ من الإسلام، تعكس طبيعته، وليس شرطًا أن تكون طبيعة دينية مباشرة. مع ذلك، وعلى الرغم من مركزية المظاهر القانونية والاجتماعية في الإسلام، يشير الكاتب إلى أن الإسلام والشريعة الإسلامية، حين يقعان في دائرة الضوء للإعلام ورجال السلطة في روسيا، يتحولان إلى موضوع سياسي بحت، أولاً وقبل كل شيء. ينطبق هذا حتى عند تقييم الإسلام على خلفية المواجهة بين الثقافات وتصنيف أنماط الحياة، فينحصر مفهوم صراع الحضارات على بعده السياسي فقط، ليغدو مباشرة (والحال كذلك) عاملا سلبيا.

يُشير الباحث إلى غياب حلٍ توافقي في روسيا لتحديد حيّز للشريعة الإسلامية، لا في النظام القانوني الوطني ولا في عادات المجتمع. ففي الخلاف حول آفاق الشريعة الإسلامية في روسيا، يتمسك معارضو الشريعة ومؤيدوها بحزم بمواقفهم الثابتة، من دون تنازل أو محاولة للتقريب بين آرائهم. يلتجئ الفريق الأول بشكل أساسي إلى الدستور ومبادئ نظام القانون الروسي، التي يُزعَم أنها تتعارض تمامًا مع الشريعة. بينما يرفض الرأي الآخر ذلك ويدعو، بشكل مُباشر أو ضمني، إلى التواضع لإرادة الله بدلاً من مراعاة التشريع الذي أوجده البشر. يقول الباحث: «إنهم لا يفتقرون إلى القدرة على مُناقشة المشكلة بطريقة إيجابية فعَّالة، والبحث عن طريقة قانونية للخروج من حالة الجمود هذه وحسب، بل ويفتقرون كذلك إلى المعرفة بأساسيات الشريعة الإسلامية وتجربة تطبيقها في العصر الحديث في أوربا حيث نجد أمثلة لتفاعل الشريعة مع التقاليد القانونية الأوروبية (...) فهياكل السلطة (في روسيا) غير قادرة بعد على رؤية سلسلة من المواقف القانونية المتسقة في الشريعة وإيجاد مكان لها في نظام القانون الروسي. وفي الجهة الأخرى، لا يرى القادة المسلمون في روسيا هذا أيضًا، فضلاً عن أنهم لا يلاحظون الاختلافات الجوهرية بين واجب مراعاة الشريعة، المفروضة على المسلمين كمؤمنين، وإدراج صبغتها في قوانين الدولة» (ص: ٦٢٦)

من جانب آخر، يُقدّر المؤلف تجربة الإمبراطورية الروسية في مسألة الشريعة حق تقديرها. فيلاحظ أن القانون العرفي كان يشمل، بشكل مستمر وهادف، النظام القانوني للإمبراطورية. في الوقت نفسه، لم تؤد التعددية القانونية، التي كانت تسمح للمسلمين بأن يسترشدوا بأعراف الشريعة والعادات في مسألة الأحوال الشخصية والأسرة، لم تؤد إلى تفكك الدولة الكبيرة. ويلخص رأيه أن تلك السياسة كانت متسقة مع الخصائص العرقية والجيوسياسية لأراضي روسيا، الأمر الذي حافظ على الإمبراطورية الضخمة وحماها طويلا من الانهيار. ويرى الباحث أن اللجوء إلى هذه التجربة التاريخية الإيجابية لا بد وأن يساعد على صدّ

التوترات الطائفية وزيادة وزن السلطة التشريعية في المجتمع الروسي الحديث.

ويعتبر المؤلف أن المسار)يسميه بالمسار المعاكس(الذي اتخذه النظام السوفيتي، جاء خلافاً للحقبة القيصرية، فأرسى السوفيت أسسا للصراعات العرقية والطائفية، حيث استُبعد العمل الفعَّال للقانون العرفي، ما دفع السكان المحليين لمواجهة القانون والسلطة باعتبارها مؤسسات غريبة. ولكن، وبالرغم من كل هذه الاعتبارات والاستنتاجات، لا نجد في تاريخ الدولة السوفيتية معارك أو صدامات على خلفيات قومية، ويبدو أنَّ السبب يكمن في نظام التربية والتعليم الموحد، عالي المستوى، والمطبق على الجميع بلا استثناء. بالمقابل نرى أن هذه المسألة تحولت إلى قنبلة موقوتة بعد انهيار الدولة السوفيتية ومنظومتها القوية.

في الوقت الراهن هناك حالات خجولة تحيل إلى الشريعة في روسيا مثل قانون تتارستان حول «حرية الوجدان والجمعيات الدينية»، والمحكمة الشرعية في إنغوشيا التي تشكلت عام ١٩٩٩ ولم تدم طويلا، والمحاكم الشرعية في الشيشان وتعدّ من الماضي أيضاً، فالحقيقة أن الدولة لا تعترف بمؤسسات الشريعة كمؤسسات قانونية كما لا ينص التشريع الروسي على إنشائها، وحتى في حالة وجودها، لا تحمل قراراتها قيمة قانونية. يبقى فقط أنَّ هذه الهيئات الاعتبارية تتمتع باعتراف المُسلمين أنفسهم. وهنا تجدر الملاحظة بأن العديد من الإدارات الروحية للمسلمين تتضمن وحدات تُعرف بـ «القديات»، من صلاحياتها تقديم المشورة في قضايا الشريعة ومساعدة المسلمين في حل نزاعاتهم. والحال كذلك فإنَّ العديد من القادة المسلمين يعتبرون هذه الوحدات بمثابة محاكم شرعية.

يولي المؤلف اهتمامًا بحقيقة أن التقييم السلبي الحاد للرأي العام وهياكل السلطة الروسية لم يقابله إلا نموذج الشرعية الذي مارسه المتطرفون. أما بالنسبة للمحاكم الشرعية الأخرى، فلم يثر نشاطها اهتمامًا لفترة طويلة. وفي عام ٢٠١٠ شهد الوضع نكسة حادة مع إعلان منظمة الفتح الدينية المستقلة في سانت بطرسبرغ إنشاء مركز إسلامي لحقوق الإنسان، كان من المفترض أن تعمل بها محكمة شرعية. لقد تم رفض المبادرة بصورة قاطعة سواء من قبل السلطات أو الجمهور. وكان ردّ البرلمانيين الروس والموظف المفوض بحقوق الإنسان في العاصمة الشمالية لروسيا، سلبيا للغاية، بل وتبعهم في ذلك مكتب المدعي العام. إلى جانب هذا يورد الأكاديمي الروسي ليونيد سيوكيانين في كتابه

تحليلا شاملا لآراء الباحثين الروس حول ردود أفعال العالم الإسلامي على العولمة، وهي آراء عديدة شكلت وجهة نظر سائدة، فينتقدها سيوكيانين بشدة ويفضح ضحالتها وأفقها الضيق. يعتبر الكاتب أن زملاءه من الباحثين الروس مقتنعون برفض العالم الإسلامي، القاطع والحاد، لكل ما ينتج عن العولمة، مفندين رأيهم هذا بطريقة تجعل من ردة فعل الإسلام على العولمة، بكل أطيافها الواسعة، واحدة، ألا وهي الانغماس الحاد في الراديكالية الإسلامية والأصولية المتطرفة. وهكذا، يتم تقديم الإسلام ككل على أنه قوة حتمية تناقض وترفض العولمة. يقول سيوكيانين: «من البيّن أنه، ووفقًا لهذا النهج، يرتقي تحليل التفاعل بين العولمة والإسلام إلى مستوى مناقشة ظاهرة الإسلام الراديكالي كقوة سياسية محض» (ص: ١٩٧) وكأن الفكرة الإسلامية مقتصرة على هذه الجزئية فقط.

إنَّ غالبية البحاثة الروس ينبهون إلى تحصّن وتمنّع العالم الإسلامي، وهو برأيهم عالم يقوم بتطوير بديله الخاص للعولمة على أساس مثالي للدولة الإسلامية وعلى القواعد الثقافية والقانونية للإسلام. بعكس هؤلاء يؤكد المؤلف على رأيه بأنَّ «الثقافة الإسلامية تتضمن معارضة قوية للنموذج المادي للتنمية، حيث يوجد في تعاليم وممارسات الإسلام حصانة قوية ضد أمراض العصر. والعالم الإسلامي، وفقاً لثقافته الغنية وتقاليده الدينية، يستجيب للتحديات المدمرة للحضارة الحديثة المشتركة للبشرية جمعاء». (ص: ٢٠٣) مبررا قوله هذا بظهور المفاهيم التوافقية والنماذج المميزة للتنمية في العالم الإسلامي، والتي تشهد على تكيف الإسلام مع عملية العولمة.

بخلاف ما سبق، يشير المؤلف إلى إحدى المحاولات القليلة لإظهار المبادئ والمفاهيم الإسلامية الصحيحة والتي يمكن استخدامها كأساس لموقف الإسلام من العولمة، منها ما قام به د. فيتالي ناومكين، مدير معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم الروسية. يقوم هذا الأخير بعرض المعايير الرئيسية للتنمية المستدامة في بحوثه المهمة، مستشهدا بأحكام العقيدة الإسلامية التي تتوافق مباشرة مع هذه المعايير ومن بينها أفكار العدالة والمساواة وإنشاء نظام مجتمعي لإعادة توزيع الدخل وأخلاق الاعتدال واحترام البيئة وغيرها.

في ختام كتابه يحثّ الباحث القارئ ورجال السلطة على تذكّر أن «الفكر الشرعي الإسلامي الحديث يسبق الحاضر من جهة، ومن جهة أخرى، متأخر عن الركب، وهذه سمة تميّز الفقه، أي التمسك بالماضي وعدم التفريط بالديناميكية. وليس من قبيل الصدفة أن يعمد مؤيدو القيم الديمقراطية الليبرالية إلى توجيه نقدهم للشريعة الإسلامية. في الوقت نفسه، يظل هذا الحراك لمعرفة الإسلام الحديث طريقا لإشاعة أجواء الحوار وإيجاد حلول ومقاربات مبدئية للتعايش. فمن بين الطيف الواسع لمجالات الفكر الإسلامي الحديث، فإن العقيدة الشرعية هي المؤهلة لتتبوأ مكانًا خاصًا في حوار الإسلام مع الثقافات الأخرى. يتّضح ذلك في تفاعلها مع الثقافة القانونية الأوروبية، صراعا أو تكاملا، تعايشا إيجابيا أو استتباعا، وأحيانا، انصهارا كاملا تقريبًا». (ص: ٦٨٤) وهكذا نرى أنه، رغم التحولات والتطورات الإيجابية التي حدثت في العقود الأخيرة في روسيا بالنسبة للإسلام كبناء المساجد وزيادة عدد الحجاج وطباعة الكتب الإسلامية ونشرها، لم يفتح الإسلام في روسيا إمكانياته بعدُ في مسألة التجديد الروحي للبلاد؛ هذه البلاد التي تضم نسبة من المسلمين غير قليلة.

الكتاب: الشريعة الإسلامية وحوار الثقافات في العالم الحديث

المؤلف: ليونيد سيوكيانين

دار النشرالجامعة الوطنية للأبحاث، «المدرسة العليا للاقتصاد» / موسكو/ 2021

اللغة: الروسية

عدد الصفحات: 688

* أكاديمية ومستعربة روسية

جبـــال صـــامتة

أيه. بي. جعفر

فيلابوراتو عبد الكبير *

إن مواقع التواصل الاجتماعي مثل فيس بوك ميدان هام يفتح أمام مستخدميه مجالا واسعاً للتعبير عمّا عندهم من الأفكار بحرية كاملة. ولكن للأسف قلما نجد فيها من يستفيدون منها بجدية أو يستخدمونها بشكل نافع. قد أصبحت الآن بمثابة قمامة يرمى إليها كل شيء، فلا محرر يقوم بتصحيح الأفكار الفاسدة أو بحذف الكلمات الضارة. كل من يملك حائطا فيها يُصبح ملكا مستبدًا. ومن الثلة النادرة الذين يستخدمونها بشيء من الجدية مؤلف كتاب «جبال صامتة» الدكتور جعفر. ومن يمر على صفحات فيس بوك الخاصة به يشهد شعوره بمسؤوليته وصدق أمانته في الكتابة. والكتاب ذاته في الحقيقة حزمة أثمار جمعها من أفكار رسمها على حائط فيس بوك الخاص به من حين لآخر. الكاتب مِهنيًا طبيب في مستشفى حمد في دولة قطر. حين يعالج المرضى الذين يمرون عليه لا يقتصرعلاجه على أداء أمانته الطبية بل يتجاوزها إلى توطيد علاقاته الودية معهم بحيث يعيش في أعماق قلوبهم أبد الأبد حتى بعد فترة العلاج. هكذا نقرأ في هذا الكتاب أصدقاء كسبهم من مختلف الجنسيات في دول عديدة ظل التواصل معهم من بعيد حتى بعد أن غادروا إلى بلادهم. وكذلك نراه أيضًا يراقب ظروف حياتهم حتى يستفيد منهم بمعلومات تقوده إلى شاطئهم المجهول. فمثلاً مرة حدث أن عالج امرأة أمريكية اسمها «جانيت»، ولكن فوجئ باسم زوجها عبد القادر الصوفي مكتوبًا على أوراقها الطبية. مُسلم صوفي وزوجة مسيحية، طبعًا بدا له هذا غريبا، وأراد استطلاعه فاستفسر من تلك المرأة التي يُعالجها عن أسرار زواجها من مسلم، فاكتشف أنها مسيحية الأصل ولكن اعتنقت الإسلام مؤخرًا بعد زواجها من عبد القادر الصوفي، وأن تغيير اسمها تحت إجراءات رسمية لم تكتمل بعد.

أدى هذا إلى تعارفه مع عبد القادر الصوفي. ويحكي الكاتب قصته تحت عنوان «الباحث عن الحق». الصوفي في يفاعته الأولى الثائرة كان «هيبّيا» من أمريكا يتجول في أنحاء العالم بدون هدف محدد. «الهيبي» (Hippy) ظاهرة منتشرة في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي في الدول الغربية. مرة حين كان يمشي على شارع في إسطنبول وحدث أن سمع موسيقا صوفيا يعزف من إحدى مقاهيها، فأعجبه حتى أصبح طالبا روحانيا ووصل أخيرا إلى بر أمان الإسلام. تَسمّى عبد القادر احترامًا ومودة للصوفي الكبير الشيخ عبد القادر الجيلاني. سأله الكاتب أي تفسير من تفاسير القرآن أعجبه؟ فأجاب بلا تردد إنه تفسير محمد أسد النمساوي "The Message of the Quran". كان هذا الرد دهشة للسائل حيث استغرب: كيف تتوافق مقارباتك التي ترتكز على المشاعر الإشراقية الروحانية مع منهج أسد المبنيّ على العقلانية البحتة الحادة؟» وكانت إجابته أنَّ لغة أسد كان لها سحر جمال فوق طبيعي لا مثيل له». يصل الكاتب إلى حكاية عبد القادر الصوفي بدءا من حكاية زينب التي لاقاها في إحدى المقاهي في بيرلين. وزينب هي الأخرى كانت مُعجبة بأسد. يدردش الكاتب معها في ذلك المقهى عن مواضيع جادة. هي صيدلية تنحدر من أسرة مسيحية بروتاستانتية، كان اسمها السابق «أنيتا». نسخة من القرآن المترجمة إلى اللغة الألمانية غيّرتْ مسار حياتها ووجهات نظرها رأساً على عقب. تلك الترجمة لم تكن معروفة على نطاق واسع، ولكن لو شاء رب البرية أن يقضي أمرا مفعولا فلا يعرقله شيء. «من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشدا». المبادئ الأساسية الموجودة في دفتي النسخة المترجمة جذبتها إليها. رصدت النقاط التي لاتستطيع أن تتفق معها لدراستها بالتفصيل فيما بعد. مع استمرار عملها كصيدليّة التحقت بالجامعة لدراسة الإسلام بعمق. كانت ناشطة اجتماعية، تجتمع مع أصدقائها في بيوت خالية من السكان لتنشط في تنظيم احتجاجات ضد الأسلحة النووية والتلويث البيئيّ. وفي تلك الأثناء لاقت سودانياً وعرفت من خلال دماثة أخلاقه في التَّعامل عظمة الإسلام عن قرب، وفتح لها الباب إلى حلقات صوفية مختلفة. وأخيرًا بعد دراسة عميقة وبحث مستمر اعتنقت الإسلام في عام ١٩٩٤، ومن ثم قامت برحلات كثيرة في مختلف البلدان الإسلامية وأدت فريضة الحج عام ٢٠١٠. لا عجب في أن يكون أسد الذي قام برحلات كثيرة مثلها من كُتّابها المُفضلين. خلال محادثة مع الكاتب مشيرةً إلى مسجد في ألمانيا قالت: هنا أعلن اليهودي «ليوبلود فايز» إسلامه وبدّل اسمه إلى محمد أسد حتى أصبح من جهابذة العلماء المُسلمين، والسفير الثقافي الذي بنى الجسر بين الحضارة الغربية والشرقية». أضحت طليقة اللسان حين بدأت تتحدث عن أسد. الحرب العالمية الأولى رمت بالمجتمعات المخملية والعائلات الميسورة في الغرب إلى لجج الشقاء. أثناء هذا حين مرَّ «ليو» مع شريكة حياته «إيلسا» وجد الكآبة واليأس تغشيان وجوه الناس الكالحة. كانت الهموم عن الوله الشديد والشره المفرط السائدين في المجتمع المتوسط قد جعلت «ليو» الذي كان يعمل مراسلا لإحدى الجرائد الألمانية في الشرق الأوسط باحثا جادا عن كنه الحياة. «أنت في حياتك الشخصية صوفيّ. ولكن في البحث عن الحقائق الروحانية أنت عقلانيّ، مفكر يحدد الصواب والخطأ في عالم المعتقدات، وفي عامة الناس الضد هو الصحيح في هذا الشأن». هكذا تقوم الرسامة «البوهيمية» أليسا» بتقييم صحيح عن طبائع أسد. وأخيرا يصل أسد إلى «الطريق إلى مكة». حكاية تجوال طويل يَعْبر الكثبانَ الرملية في الصحراء العربية قبل تنقيب الذهب الأسود من تحت أقدام البدو الذين يعيشون حياة بسيطة جدا، ورسم بكلمات تتفتح من خلالها أمام أعين القراء أزهارا يفوح منها أريج عقيدة غيرت مسار التاريخ.- هكذا يجمع الكاتبُ عبدَ القادر الصوفي وزينب وأسدا في مثلث رائع. تكتب إليه زينب فيما بعد - يام كان يام في رأسي شغل شاغل في تغيير العالم ولكنني الآن في جهد جهيد في تغيير نفسي، في خلع رداء كبريائي حتى أتمكن من التحكم في أنانيتي».

وفي الأندلس يلتقي الكاتب وليد الفلسطيني الذي يحمل الجنسية الإسرائيلية، والحاصل على درجة

تكنولوجيا المعلومات. كان يعمل في شركة «إنتل»، ووصل إسبانيا يوما لزيارتها، الفردوس المفقود للمسلمين، ولكن لم يرجع إلى إسرائيل بعد ذلك؛ لأنه هناك اكتشف لأول مرة جذور عقيدته، فأصبحت الأندلس دار قراره إلى الأبد حيث انجذب إلى نضارة الحضارة الإسلامية التي بناها أجداده. حين كان في إسرائيل لم يكن متديناً، ولم يكن يصلي كل وقت. من هنا ابتدأ لأول مرة في أن يقوم بأداء فرائضه الدينية. كانت حكايته تشبه على قدر كبير حكاية راشد الغنوشي قائد حركة النهضة. وهذا ذكّرني ما كتب في كتابه«تجارب الحركة الإسلامية في تونس». وفي طريقه من باريس إلى تونس، زار الأندلس ودخل جامع الحمراء حيث اكتشف نفسه فأذّن للصلاة مما هزّ تيار كهربائيّ أعماقَ قلبه وهلهل أفكاره من جذورها. أما وليد فبعد الاستقالة من وظيفته استقر في إسبانيا مرشدا للسياح. يشرح للكاتب تاريخ عبد الرحمن الداخل، المعروف لدى العرب باسم «صقر قريش»، الخليفة الأموي الذي استولى على إسبانيا لأول مرة، كما يحكي له حكاية طارق بن زياد البربري الذي مهّد الطريق إليها قبل ذلك. يقطف ورقة من شجيرة ليمون أمام جامع القرطبة ويقول: وهذه الشجيرة ربّما أتى بها الأمويون كي تخلد ذكرياتهم عن دمشق.» هنا يتذكر مقطع شعر يشارك فيه عبد الرحمن حنينه إلى وطنه مع نخلة تقوم وحيدة في ساحة جامع قرطبة، ويرد في معرض الحديث ذكر متحف محاكم التفتيش في قرطبة وحكايات عن الأمير فيرديناند والأميرة إسابيلا اللذين أخرجا المسلمين مع اليهود من إسبانيا، وبكاء الأمير عبد الله الصغير ولجوء المسلمين واليهود إلى فاس. ومن المفارقة الغريبة، كما تقول فاطمة المرنيسي في كتابها «نساء على أجنحة الأحلام»، أن اليهود الذين كانوا مضطهدين في إسبانيا مع المسلمين صاروا أعداء العرب فيما بعد. عندما ذكرالكاتب متحف التراث الذي تُحافظ عليه أرملة رجاء غارودي سلمى الفلسطينية، أثارت ذكرياتي عن زيارتهما كيرالا للمشاركة في مؤتمر منظمة الطلاب المسلمين الذي انعقد عام ١٩٨٥. المحاضرة التي ألقاها فيه غارودي كانت موجهة إلى الهندوس منها إلى المسلمين حيث ذكّرهم بروح التسامح الموجود في تعاليم ديانتهم، نقلا من كتبهم المقدسة. كان خطابه خير دليل على تعمّق الرجل في الديانة الهندوسية العريقة. وشريكة حياته سلمى أيضا خاطبت جلسة الأطفال في المؤتمر، وذلك

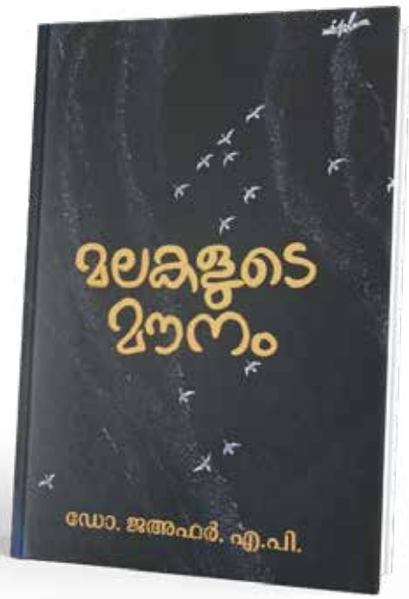

بعد خطاب أحد أدباء الأطفال الهندوسي المشهور. كانت سلمى تُصغي إلى خطابه الغني بالأغنيات واللطائف. كان يغني الأغاني ويطلب الأطفال أن يكرروا ما يغني. ولما جاء دور سلمى بدأت خطابها بتلاوة سورة الإخلاص وطلبت الأطفال أن يرددوا معها تلاوتها. كان المضيفون رتبوا لغارودي فندقا عاديا لإقامته، وكنت أقوم برعاية أموره. لا أزال أتذكر قلقه البالغ حين تأخرت سلمى بعد مشاركتها في اجتماع عقدته لها إحدى الجامعات.

إذَن ماذا يعني عنوان الكتاب «جبال صامتة؟ نقرأ في الكتاب مقالة تحمل نفس العنوان. مضمونها تجارب الكاتب خلال رحلته إلى أديرة في جبل من جبال «آثهوس» التي كان يسكن فيها الرهبان المسيحيون الإغريقيون. الكاتب كزانتزاكيس كتب أعماله الإبداعية وهو يُقيم في إحدي هذه الأديرة. في الطريق إليها وسط مدينة «أثينا» أشار سائق التاكسي «يورغاز» إلى مبنى قديم تتحلق فوق مناراته الحمائم، كان مسجداً بناه العثمانيون الذين حكموا اليونان قبل قرنين، وهو الآن متحف. كان في اليونان مساجد كثيرة في عهد العثمانيين، منها مسجد عُثمان شاه في تريكالا. أصبح أكثرها فيما بعد متاحف أو كنائس. وفي الطريق إلى «أثوس» أرى الكاتبَ يورغاز مسجد عثمان شاه في تريكالا وصرّح له عن مأساة الإغريق بعد دخولها في الاتحاد الأوربي. ولمّا تحولت «دراخما» العملة الإغريقية إلى العملة الأوربية الموحدة يورو زادت أسعار جميع الضروريات اليومية. ويقول إنَّ وطنه كان يقع في وكر أعدتُه لذلك ألمانيا. بعد تجاوز عقبات جمَّة وصل الكاتب وصديقه بنيامين إلى دير «ميتيورا». بينما غرق بنيامين في عذوبة تأملات روحانية في ذلك الدير كان الكاتب يفكر في علاقة الجبال بالأديان، ويرى أن الثقافات العقائدية تنبثق من وجوم تحملها جبال في داخلها. ويقول: «قد يكون لأدعية كزانتزاكيس خلال إقامته في وحشة هذا الجبل دور في تبريد حممه الداخلية وتشكيل أفكاره وعقائده. علينا أن نجد وقتا للتأمل في وحشة صمت الجبال. وقد يُطهِّر أنفسَنا الجبال وهدوء فضائها».

يبدأ الكاتب كتابه من مكان عمله، بحكاية عن فتاة فلسطينية جميلة تُعاني من مرض التصلب اللويحي المتعدد، وهي طالبة الدراسات العليا في الطب. تدري أنها بعد سنوات قد لا تستطيع أن تمشي وتبتسم كما هي الآن، ولكنها دوما حيوية تقهقه حين تتكلم. هكذا بعض الناس، يقول الكاتب: «تتفتح دائماً براعم الابتسام على شفاههم ولو أن هناك أسبابا كثيرة تبلل عينونهم. يعيشون كأنهم يعيشون أبدا رغم أنهم يسمعون خطوات المنية من وراء ظهورهم. مثل تلك الفلسطينية هناك ممرضة فيليبينية، وهي مشغولة دائمة في المكياج بينما يحترق داخلها بجمرات من المشاكل الحياتية. وثمة نماذج كثيرة مثل هؤلاء الذين يحملون آلاما في صميم قلوبهم ولكن يُزوِّدوننا بطاقة بأحلام لدفع الحياة إلى الآمام. إنهم زنابق الحقل التي تَحدث عنها يسوع وأرادنا أن نتأمل كيف أنها تنمو ولا تتعب. إن هذه الزنابق هي دليل على أن الرب أراد أن يوجه أنظارنا إلى عنايته بهذه النباتات الضعيفة والتي تخطف الأبصار بجمالها وتعدد أشكالها وألوانها».

والكتاب مجملا مليء بحكايات أناس بسطاء ولكن ذوي تجارب غير عادية تنشر بَريق الأمل في سماء الحياة المُعاصرة المغطاة بغيوم الهموم السوداء. كتاب واحد ولكن نستطيع أن نقرأ خلال صفحاته كُتبا وأن نلتقيَ كتّابا من قارات عديدة. كل فصل فيه لا يتجاوز صفحتين، كأنها لآلئ متألقة في أصداف رائعة.

الكتاب: جبال صامتة

المؤلف: دكتور جعفر أيه. بي

اللغة: مالايالام، عدد الصفحات:148

سنة النشر: 2021

الناشر: مكتبة النشرات الإسلامية، كوزيكود، كيرالا، الهند

* مستعرب هندي

الثورة الجامعية: ملخص النظرية المنهجية للتعليم العالي الحديث

إيريك ليبيك

محمد بن علي الإسماعيلي *

تُعد النظرية الاجتماعية الكلاسيكية والمعاصرة عملاً علميًا صارمًا أعاد اكتشاف أهمية النظرية الاجتماعية للأزمنة المُعاصرة، فقد أكدت على حضورها الدائم في القضايا الاجتماعية الحديثة وظواهرها؛ لتشمل العديد من تخصصات علم الاجتماع ورواده ومفكريه. من بينهم المفكر والباحث الاجتماعي إيريك ليبيك، أكاديمي في جامعة مانشستر بالمملكة المتحدة، ورئيس تحرير مجلة علم الاجتماع المدني، الذي أبرز المكانة العلمية للجامعة وقدرتها على إحداث ثورة تعليمية مضادة لها آثارها الإيجابية على المجتمع والثقافة؛ من طريق الاهتمام برأس المال البشري وخدمة اقتصاد المعرفة.

لماذا لدينا جامعات حديثة؟ سؤال طرحه إيريك قبل تأليف كتابه هذا بما يزيد على ٥ سنوات. تشير إحصاءات التعليم العالي عالميًا إلى أن أكثر من مليار شخص لديهم درجات علمية عليا، إذ أنتج هذا الامتداد الحداثي الضخم للتعليم العالي سابقة من نوعها في تاريخ البشرية. رغم أن تاريخ انتشار التعليم استهدف زيادة رقعة المعرفة في المجتمع؛ إلا أنّ سبب التوسع المؤسسي للجامعات الحديثة ما كان ليحدث لولا ضغوط الإمبريالية والصراع الطبقي. فيما قاد السؤال الذي طرحه المؤلف للبحث في تاريخ التعليم العالي الحديث ومكانته في المجتمع الحديث، وتحقيق الفهم التاريخي والاجتماعي في تكوين الجامعة الحديثة في العقود الأخيرة من القرنين المنصرمين باستعمال نهج علمي جديد.

ثورة التعليم الأكاديمي

لقد طرح الكتاب أفكارا حملت في مضامينها نقدا وحوارا وتصحيحا لإعادة دراسة نشأة وتحوّل التعليم الجامعي الحديث، إذ نجد أن الكتاب مُقرٌّ بمركزية تلك التحوّلات والتطورات في تكوين العالم الحديث، مثل: الثورات الصناعية والديمقراطية، فلا ريب أنَّ أهمية دور الجامعات لا يوازيه دور آخر تشتغل عليه المؤسسات الأخرى في المجتمع. وهذا ما بحث فيه علماء التاريخ والاجتماع المهتمون بالدراسات النوعية في مجالات التعليم والعمل والمساواة؛ فالتفسير الجديد لدور الجامعات في المجتمع المعاصر أعاد توجيه المقاصد تجاه أهمية التعليم العالي في التنمية الماضية والمستقبلية للمجتمعات الحديثة.

وقد بدأت أولى ملامح عملية التعليم الأكاديمي في الظهور منذ عام ١٨٠٠م، إذ أدت هذه المرحلة إلى تحديد هيكلة الجامعة الحديثة وثقافتها، والانتقال من التعليم النخبوي إلى نظام التعليم الجامعي الجماهيري. ويجادل هذا الكتاب أسس التحول الكبير الذي لحق الجامعة الحديثة بنفس أهمية تمكين الثورات الصناعية والديموقراطية؛ لرسم ظروف المجتمع العصري واستراتيجياته على المدى الطويل. وهناك العديد من العوامل التي أسهمت في هذا التحوّل، أبرزها: صعود طبقة جديدة في المجتمع هي (طبقة الأكاديميين) - علمنة المعرفة وإرساء قواعد الانضباط التعليمي - تصنيف العلم وترسيخه بين شريحتي النساء والأطفال حقًا من حقوق المواطنة - صعود العلم والتكنولوجيا وتأثيرهما السائد على مختلف العلوم والصناعات واستثمارهما موردين من موارد المجتمع الحديث.

وبعد مراجعة ماهية الجامعات والأدوار المنوطة بها، نجد أن صعود الجامعة الحديثة كان ظاهرة سامية لظواهر اجتماعية عديدة، وقد استند المؤلف على نظرية داروين لتحليل تطوّر التعليم الجامعي وتشجيع تراكم المعرفة؛ مما أدى إلى ظهور نظرية «عملية التعليم الأكاديمي»، التي صنعت تأثيرا كبيرا في مجال عملية التعليم الأكاديمي متعددة الأبعاد؛ الذي يُعنى بصعود العلم والتكنولوجيا والابتكار؛ كونها قضيتها الجوهرية والمركزية، فقد جاء إنشاء النظام الموحد الحديث لهذه العملية بداية من القرن التاسع عشر، تحديدا في جامعة برلين عام ١٨١٠م؛ ليفسر هذا الدور الوظيفي للنمو الهائل في التعليم العالي، وقدرة النظام الجامعي الحديث على قيادة الدور الأساس في سياق دمج السلوكيات المتناقضة للمجتمعات الصناعية الديمقراطية وتخفيفها. فيما جاءت الثورة الفلسفية الفرنسية لنقد هذه النظرية مادياً، متأثرة بالظروف الاقتصادية والاجتماعية عامة آنذاك.

وقد عاد المؤلف إلى تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية لدى عالم الاجتماع الفيلسوف الفرنسي إيميل دوركهايم، الذي تتبع الصورة التاريخية لتطور المؤسسات التعليمية والفكر في كتابه «تطور الفكر التربوي»؛ شارحا التغييرات التي طرأت على النظريات التربوية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث. وساق كذاك رأي عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز تجاه التعليم العالي الجماعي، السمة الأكثر أهمية للبنية المتطورة للمجتمع الحديث؛ من طريق الدور الريادي الذي تقوده الجامعات في التحول من المجتمعات التقليدية إلى المجتمعات الحديثة عبر تشجيع تخصيص المكانة الاجتماعية حسب الإنجاز بدلاً من النسب أو السلطة؛ مما أدى إلى تزايد نشاط الحراك العلمي والإسهام البحثي في تلك الفترة وما بعدها؛ لتسجل الجامعات آنذاك رواجا في دفع المنح الدراسية والتبادل الطلابي. وقد كان هذا الإطار مهما لتتبع تاريخ الجامعات والدولة والمجتمع لمعرفة الفرق الذي يحدثه هذا في صقل معرفتنا بثورة «عملية التعليم الأكاديمي» وترسيخها، حتى أصبحت ديناميكيات هذه النظرية قادرة على صنع بيئة مهنية تضع فئة معينة من العاملين في مجال المعرفة والعلوم والتخصصات، الذين يستمدون مكانتهم من نظام جامعي متنام علميا واجتماعياً.

التطوّر المنهجي للجامعات

إنّ كتاب: «الثورة الجامعية: ملخص النظرية المنهجية للتعليم العالي الحديث» لإيريك ليبيك أظهر تطورا منهجياً لأنظمة التعليم العالي، فقد مكّنت الجامعات في الدول الغربية من الإصلاح الاجتماعي العقلاني دون الحاجة إلى ثورة أو مشاركة شعبية. وعلى سبيل المثال، قدّم النظام الأكاديمي الألماني آلية يمكن من طريقها لطبقة الأرستقراطيين والمتخصصين في مختلف العلوم التواصل الاجتماعي مع شتى فئات المجتمع؛ لذا أفرزت شكلاً جديدًا للثقافة الأكاديمية، التي أكدت حجم عدم المبالاة في العلم جنبًا إلى جنب مع الادعاءات تجاه القيمة العالمية للحضارة الغربية. وقد انتشر النموذج الألماني في كثير من الجامعات العالية، تحديدا في الولايات المتحدة الأمريكية، إذ أوجد لها نظاما وطنيا للتعليم الثانوي؛ بإضفاء طابع مؤسسي على «الجامعات» الأمريكية باعتبارها مدارس عليا على رأس الكليات الجامعية الحالية.

وفي بريطانيا، استبدل المصلحون التربويون بالمناهج الكلاسيكية أشكالا أخرى أكثر «حداثة» في مناهج الدراسة؛ من طريق إعادة إنتاج الهياكل العامة لعملية التعليم الأكاديمي بطرقها الخاصة، متبعة التحول السريع نحو المشاركة الجماعية في التعليم الجامعي. فيما أدى ظهور العلوم وارتباطها بمؤسسة الجامعة إلى مشاركة الدول بنفسها -إلى جانب العلماء- في خطط إنشاء الجامعات وتطويرها، كما أسهمت الظروف الاجتماعية في تنظيم العلوم داخل معامل البيئة الجامعية وأنشطتها ومراكزها. وقد فسر عالم الاجتماع الأمريكي والمؤرخ الاقتصادي إيمانويل واليرشتاين، عند تطويره لمنهج الأنظمة العالمية، صعود العلم في الجامعة غطاءً أيديولوجياً للنظام العالمي الرأسمالي التوسعي للتعليم الحديث.

التنظيم الأيديولوجي للأنظمة الجامعية

وتشير الأيديولوجيات الحديثة إلى أن الإنتاج البشري يعتمد على العلم والتكنولوجيا معاً، وأن مشاكل المجتمع قابلة للحل على أساس تكنولوجي؛ لذا دوّنت بحوث علماء الاجتماع صعوداً مميزا للتنظيم الفعلي للأيديولوجيات العلمية؛ خصوصا في المجتمعات الحديثة. وقد كان الوضع العلمي داخل المؤسسات الجامعية الحديثة أساسا مميزا لخلق بيئة متناغمة بين العلم والإيديولوجيا، إذ كانت هذه المرحلة رمزا عمليا للنظام الجامعي؛ وذلك باعتبار (العلم) سلطة خارجية مستقلة قائمة على أسس ذاتية. ومن ذلك نشأت الاستقلالية الأكاديمية داخل الجامعة، مع تعزيز سلطة المهنيين العاملين خارج المجالات الأكاديمية، بما في ذلك المجتمعات الرأسمالية القائمة على المعرفة المعاصرة.

ويؤكد هذا التنظيم الأيديولوجي على دور الجامعة اليوم كونها المؤسسة الحديثة الرئيسة لتدريب الأيديولوجيين؛ إذ وصفها بأنها تلك المؤسسة الوحيدة التي يستمد منها معظم الأيديولوجيين المعاصرين فكرهم. وقد اعتمد الكتاب لتفسير ذلك على نظرية السياسي الألماني وعالم الاجتماع إدوارد برنشتاين، الذي اعتبر المؤسسات التعليمية أداة علمية للتحوّل الأيديولوجي؛ إذ إن الجامعات الحديثة -على حد وصفه- هي المؤسسة التي يتم منها تنظيم الأيديولوجية الحديثة للتكنولوجيا والحصول على القوة الاجتماعية، فهي مركز هذا النظام عبر حساب المنشورات البحثية التي تُعنى ببحوث الشعوب والمجتمعات في مختلف قضايا الحياة؛ وذلك سعيا نحو تنظيم السلطة الاجتماعية استنادا على هذا النظام الجامعي.

مفارقات التعليم الأكاديمي

لقد نجح الكتاب في تحليل الفكر الأكاديمي النخبوي الذي كان عنصرًا مركزيًا داخل أيديولوجية الطبقة الوسطى في أثناء مزاولة عملية التعليم الأكاديمي طويلة المدى، هذا النظام استطاع تحطيم الكثير من قيود التعليم سواء في المدارس المستقلة أو الحكومية. وقد اتبعت الاتجاهات الليبرالية هذا النمط المهتم بالتعليم العالي لعقود طويلة، وعلى سبيل المثال، يُعد التعليم العالي البريطاني المعاصر مدعوما من النظام الحاكم، إلا أن الإقبال على دراسة اللغات الأجنبية الحديثة في بريطانيا والدول الناطقة باللغة الإنجليزية سجّل انخفاضاً كبيرا رغم أهمية تعدد اللغات لدى الخريجين، والمهارات المهنية الواضحة التي يقدمها هذا التعدد في ظل اقتصاد المعرفة المتطلب لهذه الخصائص.

وقدّم الكتاب مثالا آخر على المفارقات التي صنعها التعليم الأكاديمي، إذ نجح في إحياء لغتين كانتا تعدان ميتتين بسبب الفوضى الثقافية والإقصاء الاجتماعي والطبقي العنصري، هما: اللغة اليونانية واللغة اللاتينية، فقد وجّهت المؤسسات الأكاديمية الحديثة المتمثلة في الجامعات إلى تحقيق المساواة، وإدراك القيمتين التاريخية والمعاصرة للمجتمعات. علماً أن هذا التوجه التعليمي الحديث للجامعات استطاع غرس مفهوم المساواة وحق التعليم والانضمام للجامعات في مختلف شرائح المجتمع وأفراده؛ أخذا بعين الاعتبار أهمية الخصائص الديموغرافية السكانية المطلوبة، تحديدا في جامعات المملكة المتحدة التي كانت تعاني من حرمان بعض طبقات المجتمع من بعض الحقوق.

المرأة والتعليم العالي ... تجاه المساواة

تطرق هذا الكتاب إلى مشاركة المرأة في مؤسسات التعليم العالي والاعتراف بها في هذا المجال، والضغوط التي مارستها الجامعات النسائية على منظمي الدرجات العلمية للحصول على منح تلك المؤهلات الجامعية. وحدد الباحث في كتابه هذا سبعينيات القرن التاسع عشر فترة شهدت توثيق التاريخ العام للتعليم العالي للمرأة، خصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، فقد كان الاهتمام بصعود المرأة في سلك التعليم العالي أحد أبرز عناصر «عملية التعليم الأكاديمي»؛ لما لهذه الحركة من تأثير مركزي مؤثر على المسار العام للتعليم العالي الحديث في المجتمع.

إن قضية مساواة المرأة بالرجل دفعت النظام النخبوي الأوروبي إلى تحقيقه في عدد من المجالات، أهمها: السياسية والقانونية، وفي منتصف القرن التاسع عشر مارست الشبكات الاجتماعية بقيادة مفكرين اجتماعيين حملات للقضاء على تمييز الرجل والمرأة في الجامعات الرائدة، لاسيما في جامعتي لندن وكامبريدج؛ إذ إن أولوية التعليم العالي للمرأة في بريطانيا جعلت العديد من ميادين العمل مشرعة تقودها المرأة بنفسها. ويشير تاريخ توسيع نطاق الوصول إلى التعليم العالي كذلك إلى وجود معايير تعسفية بسبب الطبقية والنوع الجنسي والاحتكار المادي والمعنوي؛ بيد أن قادة الفكر التربوي والاجتماعي والثقافي المعنيين بالحفاظ على الصندوق الاجتماعي للمعرفة وتحديثه، تبنوا منظورا عمليا طويل الأمد لتقليص الفجوة الحاصلة بين توسيع المشاركة التعليمية الجامعية وهذه المعايير غير العادلة.

تعددية التخصصات

لقد عرف التاريخ التنظيمي للجامعات الحديثة دعوات متسقة لتحقيق تعددية التخصصات الجامعية؛ لذا واجه علماء الاجتماع هذه القضية التي اجتاحت الجامعات بمجموعة من الأطر النظرية. فيما أنتجت السلطة ورأس المال مجموعة متعددة من أشكال التخصصات التي تُعنى بالشؤون الوطنية.

ولتقصي هذا السياق التاريخي، برزت مجموعة من علماء اجتماع الأفكار الجدد، الذين درسوا التحول الإحصائي في علم الاجتماع؛ كونه جزءاً من حركة واسعة لتعدد التخصصات التي حدثت في الجامعات في أوائل القرن العشرين. وقد اعتمد البحث المنهجي على تقصي ثلاثة محاور أساسية، هي: العلم والتكنولوجيا والمجتمع؛ لذا أدى هذا التحول إلى وضع سياق للممارسات؛ بما في ذلك مرحلة تطوير الأفكار والأقسام التخصصية داخل الحرم الجامعي في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا في البداية.

هل يوجد سبب مقنع لضرورة متابعة علم الاجتماع الجديد للأفكار التي تدرس تعددية التخصصات؟ سؤال طرحه الباحث لتحديد الأطر النظرية الفاعلة في هذا المجال. إن نموذج عالم الاجتماع نوربرت إلياس للمعرفة وجّه لاستخدام المنظور النظري الفعلي لدمج التخصصات المتعددة، ووضعها في سياق الاتجاهات التاريخية طويلة المدى. ورغم ذلك، تعرضت العلوم متعددة التخصصات إلى مشاكل عديدة، فقد واجهت التخصصات الإنسانية أشكالًا أكثر ذاتية من المعرفة مقارنة بالعلوم الطبيعية؛ وذلك من طريق العديد من التحيزات التي دفعت الجامعات الحديثة إلى إعادة الالتزام بقيمة الحياد داخل التخصصات والأقسام بشكل صحيح؛ حتى مع تبرير النقاد على أنه توجيه أيديولوجي للجماعات المهيمنة.

وأخيرا يمكننا ملاحظة محاولات علماء الاجتماع لاقتراح حلول للمشكلات التي لحقت التخصصات الجامعية المتعددة، نتجت تقنيات مفيدة وتركيبات تمثلت في السعي وراء الهدف الأوسع المتمثل في ربط العلوم ببعضها بعضا بشكل فعال في التخصصات الأكاديمية المتعددة في سياسة الجامعات الحديثة. في حقيقة الأمر، شجّع النموذج الديمقراطي للحكومات المشاركة المتساوية لعملية التعليم الأكاديمي الحديث؛ لذا يقدر تقرير اليونسكو الصادر عام ٢٠١٧م أن ٢,٨٪ من سكان العالم تقريبًا ملتحقون بسلك التعليم العالي، وهذا لم يحدث مطلقاً في تاريخ البشرية أن كان التعليم العالي واسعا بهذا الشكل من حيث الانتشار والأهمية العالمية، فقد سجّل نموا في أعداد الكادر الأكاديمي والإداري والفني، وتزايد المباني وارتفاع معدل البحوث وتبادل فرص المعرفة والتدريب. من جانب آخر شدّد الكاتب على أهمية المحافظة على المكانة النسبية للمهنة الأكاديمية من التدهور الذي قد يلحقها من جرّاء التحولات السلبية في اقتصاد المعرفة العالمي، وحراك الليبرالية الجديدة والرأسمالية المتأخرة.

الكتاب: الثورة الجامعية: ملخص النظرية المنهجية للتعليم العالي الحديث.

المؤلف: إيريك ليبيك.

اللغة: اللغة الإنجليزية.

عدد الصفحات: 215 صفحة.

سنة النشر: 2021م.

دار النشر: روتليدج - دار نشر بريطانية مُتعددة الجنسيات.

* كاتب وباحث عُماني

الفلسفة وأزمة المناخ: كيف يمكن للماضي أن ينقذ الحاضر

بايرون ويلستون

فينان نبيل *

يعد تغير المناخ من أكبر تحديات العصر الحديث؛ لاتصاله بحياتنا اليومية بقدر ما يتصل بالنظام الجغرافي، السياسي، العالمي، فهو يُمثّل أحد أبعاد أزمة بيئية شاملة نتجت مباشرة عن العلاقة المُعقّدة بين الإنسان، والطبيعة. يحاول كتاب- الفلسفة وأزمة المناخ» أن يوضح كيف يمكن لتاريخ الفلسفة أن يوجهنا إلى التكيف مع الواقع الجديد الذي أحدثته أزمة المناخ، وهي أزمة وجودية ذات عمق، ويوضح لنا الطريقة التي استجاب بها الفلاسفة السابقون لأزمات مماثلة في عصرهم. يعتبر الكاتب أزمة المناخ شكلا من أشكال التشتت الميتافيزيقي، ويؤكد أن أحد أهم أسباب ارتباكنا أمام تلك الأزمة هو الافتقار إلى الأسس القيمية التي سادت قديما، التي لم تعد كالسابق فأصبحنا نتعامل على غير هدى .

يتجه نظام الأرض نحو حالة من عدم الاستقرار تتمثل في ارتفاع درجات الحرارة، والتي قد تؤدي إلى فوضى مناخية، قد تقضي على أنواع كثيرة، وندرة بعض الأنواع، مما قد يؤدي إلى التخلي عن القيم الأساسية التي ستعتبر كماليات يمكن التخلص منها. أصبح الرهان الأساسي هو مستقبل البشرية، فقد تصبح الحياة على الأرض صعبة، أومستحيلة، إذا لم نتمكن من تحقيق السيطرة على التطور المناخي.

حاول «ويلستون» أن يستخلص من تاريخ الفلسفة توجها جديدا للمستقبل، وأن يأخذ فكرة من كل نظام ميتافيزيقي ليشكل ابتكارا جديدا إزاء أزمة المناخ، فوجد عند أفلاطون أنه يتعين على السلطة السياسية أن تلتزم بمعرفة نظام المناخ. لقد أوضح الفلاسفة المعاصرون وجهة نظر أفلاطون أنها تركز على «التوافق، التناسب» بين رغباتنا أو معتقداتنا من ناحية والعالم من ناحية أخرى، بينما يرى أوغسطين أن التفكير الأخلاقي، والسياسي يجب أن يكون مستنيرًا بحب الكل الأيكولوجي، ويرى إسبينوزا أننا يجب أن نتصور الأرض كنظام مُعقد، بينما رأى هيجل أن المصالح الحيوية لنظام الأرض نفسه تتعرض لتهديد نتيجة تغير المناخ.

اجتاح كوفيد-١٩ العالم في ٢٠٢٠، فقتل أعدادا هائلة من الناس، وأوقع الاقتصاد العالمي في حالة من الفوضى، وشكل خطرا على البشرية، ورغم أن العديد من الدول بدأت تسطح مسار الإصابات، والوفيات، إلا أن ذلك لم يمنع المخاوف من أننا لن نشهد ذروة وانخفاضا آخرين، بل هي دالة جيبية ستمتد لمدة عامين ارتفاعا، وانخفاضا. يعتبر الكاتب أن انتشار فيروس كورونا وطرق الاستجابة له مؤشر لحدث أكبر حجما وهو «تغير المناخ»، ويدعو إلى الاستعداد السياسي والعاطفي والاجتماعي والوجودي لمستقبل طويل من الأزمات المماثلة .

أجرت مؤسسة «بيو» للأبحاث استطلاعا للرأي في عام ٢٠١٩ في ست وعشرين دولة، حول أزمة المناخ، إلى أي مدى تعتبر تهديدا للبشرية، وجاءت نتيجته أن التغير المناخي يعتبر أكبر تهديد للبشرية، ويفوق تنظيم الدولة الإسلامية، والهجمات الألكترونية من دول أجنبية، والبرنامج النووي لكوريا الشمالية، وحالة الاقتصاد العالمي، وقوة ونفوذ الولايات المتحدة وروسيا. احتل تغير المناخ قمة هذه القوائم أو كان قريبا منها، وقد تتغلب عليه المخاوف بشأن كوفيد -١٩ في الأشهر وربما السنوات المقبلة، ولكنه سيبقى قريبًا من القمة.

يختلف تغير المناخ عن التهديدات الأخرى التي حددها مسح «بيو» في أمرين هامين، الأول: أن التهديدات الأخرى سريعة الزوال نسبيا، ويمكن أن نتخيل حلولا لها، كما أنها محصورة في أغلب الأحيان في إطار الجغرافيا السياسية، بقدر ما تنطوي عليه من تحديات فإنها لا تجبرنا على طرح أسئلة تتجاوز هذا المجال المحدود نسبيا، أما أزمة المناخ فتستمر طويلا؛ لأن استقرار بعض الكربون في الغلاف الجوي الآن سيبقى طويلا، وقد يغير المناخ العالمي لآلاف السنين. ولا يرتبط التغير المناخي بالأنشطة الممتدة للمستقبل البعيد فحسب، بل يرتبط بنظام الأرض بأكمله، فينعكس على النظام السياسي، مما يعد بؤرة تهديد أخرى، فيذهب العديد من الخبراء الأمنيين إلى أن تغير المناخ سوف يُعيد ترتيب خريطة الجغرافيا السياسية على مدى هذا القرن. لذا يمكن أن نستنتج بأمان أن تغير المناخ هو أكبر أزمة نواجهها لاتساع نطاقها المحتمل. تكمن نقطة الاختلاف الثانية في أن أزمة المناخ، وحدها التي تتطلب التفكير بصورة شاملة من جانب جميع سكان الأرض، فلا يوجد أي من التهديدات الأخرى يجبرنا على التساؤل إلى أين نحن ذاهبون كجنس بشري، وما الذي أدى بنا إلى المأزق الحالي.

تقترن كل أزمة عالمية في الخطاب الشعبي، والأكاديمي بكلمتين قويتين هما «الحضارة، والانهيار»، وليس هناك مبالغة أن الأزمة المناخية العميقة التي تلوح قد تهدد الحضارة وتعيد تصورنا للجنس البشري، وتعيد تشكيل كل شيء ليس فقط الأشياء المادية كالبنى التحتية والطاقة، بل الحدود الجغرافية والقيم؛ لذا يجب أن يُنظر لأزمة المناخ في حجمها الطبيعي، لأنها ستفرض تحديات لن يفلت منها أحد في كل مكان في العالم، وسيتحمل العبء الأكبر من تلك التحديات بلدان الجنوب.

يتساءل الكاتب عما إذا كانت المجتمعات جيدة التنظيم بالقدر الكافي للتعامل على النحو اللائق مع تلك الكارثة المستمرة، فقد تفاوتت استجابة الدول تجاه أزمة كوفيد وعكست مدى رشد الحكم وكفاءته في كل دولة، فعلى سبيل المثال كانت جهود الرئيس ترامب وسوء إدارته كارثية؛ فقد أدى خطابه لتهدئة الأمريكان تجاه التهديد الذي يواجهونه إلى كارثة إنسانية كبيرة، وقد قامت تايوان وسنغافورة بعمل جيد للغاية في احتواء هذه الأزمة، في حين استجابت إيران، وروسيا، والبرازيل بدرجات متفاوتة من عدم الكفاءة. ينطبق هذا على تغير المناخ؛ فقد يؤدي لمواجهة عقود من الكوارث المتزايدة والمتعاقبة، من حرائق الغابات، والفيضانات، إلى الهجرات المنفلتة، والجفاف، وانتشار أمراض أكثر فتكا. إنها أزمة عملاقة واحدة تؤدي إلى سلسلة من الأزمات التي ستتحدى قدرات المواجهة لدى أغنى المجتمعات وأكثرها مرونة، وستنتج الأزمات المتتابعة حرمانا ماديا شديدا، وندرة في الموارد، بما في ذلك ندرة موارد الرعاية الصحية؛ فالظاهرة تحدث شروخا متزايدة الاتساع في صرح الحضارة، ويأمل الكاتب مخلصاً أن يكون كوفيد -١٩ سبباً في إيقاظ الناس على هذا الواقع الجديد.

لا يركز الكتاب على كيف ستبدو الحياة على الجانب الآخر من الأزمة، ولا يذهب إلى أبعد من«سرد الأزمة»، ولا ينغمس في أحلام «المدينة الفاضلة» بشأن مستقبل تتخلص فيه البشرية من نير التكيف مع الكوارث. هو يترك ذلك لآخرين اتجهوا مثل هذا الاتجاه كالمفكرين الاجتماعيين في القرنين الثامن عشر،والتاسع عشر مثل روبرت أوين، وهنري دي، وسان سيمون، وهو لا يعادي المدينة الفاضلة بقدر ما يستحضر العداء الماركسي لها، فيؤكد أن علينا أن نتصرف وكأن الأزمة باقية معنا في المستقبل، ونركز على ماهو قيم حقا في عالمنا.

يرى الكاتب أنه من المدهش أن نصل إلى أزمة وجودية بهذا الحجم على مدى مائة وخمسين عاما فقط من التصنيع. إن وتيرة الانهيار أسرع من كل التوقعات، والعواقب السلبية لهذا الانهيار بعيدة المدى زمانيا ومكانيا، وسياسيا وأخلاقيا. نحن باختصار كائنات في حالة سقوط حر بلا اتجاه في حالة ذعر وترنح، ولكي نفهم ونخرج من هذا المأزق نحن بحاجة إلى الفلسفة.

قد يختلف هذا الكتاب عن كتب أخرى تناولت أزمة المناخ؛ فلم يتحدث عن السياسة الخضراء،و الحد من البصمة

الكربونية، بل ركز على ترسيخ المفهوم السقراطي بأن الحكمة تتطلب معرفة الذات. كان هدفه الرئيس تحسين المعرفة،والتوصل إلى فهم جماعي للذات كمهمة ميتافيزيقية أصيلة،وهو أمر يغض عنه الطرف كثير ممن يتناولون أزمة المناخ؛ فالميتافيزيقا هي دراسة البنية الأساسية للواقع، وطرح أسئلة عن الله، وطبيعة العقل، وعدد العناصر الأساسية، أو المواد في العالم، والعلاقة بين الإنسان والمكونات غير البشرية، وأكثر من ذلك، النظام الميتافيزيقي هو سرد كيف أن كل هذه الظواهر -الطبيعة: العقل، والمادة، والوقت، والتاريخ، والسياسة، وحتى التكنولوجيا- تتناسب مع بعضها البعض. قال الفيلسوف الأمريكي «ويلفريد سيلارز» (١٩١٢-١٩٨٩) ذات مرة إن الميتافيزيقيا (أو الفلسفة بشكل عام) تهتم «بكيفية سير الأمور على أوسع نطاق لمعنى المعقول». الميتافيزيقيا هي دستور العالم في الفكر، إنها مهمة بناءة نادرا ما كان ينظر إليها أهم ممارسيها كغاية في حد ذاتها، بل كاستجابة لأزمة متصورة، إن الأزمة هنا تهدد أسلوب الحياة، والقيم التي تشكل الوجود الجماعي.

إن الفلاسفة يفهمون عالمهم الذي يمر بأزمة عميقة بشكل معين، أو ويعتبرون أن هناك عيبا في الكيفية التي تم بها فهم البنية الأساسية للواقع حتى الآن. وظيفتهم كما يرونها هي إعادة تشكيل العالم. واتضح من عرض الكتاب كيف واجه الفلاسفة الأزمات التي هددت عوالمهم،وكيف يمكن لتخصص تجريدي كالفلسفة أن يطبق على شيء ملموس كأزمة المناخ.

حاول الكاتب أن يلقي الضوء على أزمة المناخ في ضوء ذلك النوع من الأسئلة الفلسفية الكبرى التي طرحها أهم المفكرين في تاريخ هذا المجال متخذا من الأزمات التي مرت على العصور الماضية مثالا لذلك؛ فربط بين الصدمات الجماعية الماضية وبناء النظم الميتافيزيقية. على سبيل المثال، بعد غزو واحتلال روما عام ٤١٠ م، كتب «القديس أوغسطين » المفكر العام الأول في هذا العصر، مدينة الله» أكد فيه على فكرتين الأولى : أهمية الحب والرعاية، والطريقة التي يجب بها إبعاد هذه الحالات العاطفية عن الذات لكي تشمل الكل، والثانية: هي الدرجة التي يتنافس بها هذا الحب المتجه للخارج دائمًا مع حب الذات. يوضح لنا أوغسطين لماذا يجب أن نهتم بالكلية وكيف يجب أن تتنافس هذه الرعاية مع الجشع، ويربط الكاتب بين هذا الصراع الأساسي بين الأشياء التي نهتم بها، وبين الأشياء الأخرى ويرى أن جوهر أزمة المناخ تكمن في هذا الصراع .

ألقى «ويلستون» الضوء على تصوير الفيلسوف الألماني ديكارت الذي عاش في القرن السابع عشر وعاصر العالم «جاليلو»، لأزمة الحداثة المبكرة كأحد مؤسسيها، ونظرته إلى الطبيعة باعتبارها جملة من الأشياء الموضوعة تحت تصرّف الإنسان، ويركز مشروعه على دعم فكرة «الحيوان الآلة» أي أن الكائن الحيّ ليس سوى مادّة جامدة مُنسقة بشكل مُعقّد، وأن الإنسان هو الكائن البشري الوحيد الذي يتمتع بروح جوهرية مُتميّزة عن الجسم، ممّا يجعل منه الجنس الوحيد الجدير بالتقدير، أما المتبقي من الطبيعة، الحيّ منها أو الجامد، فهو

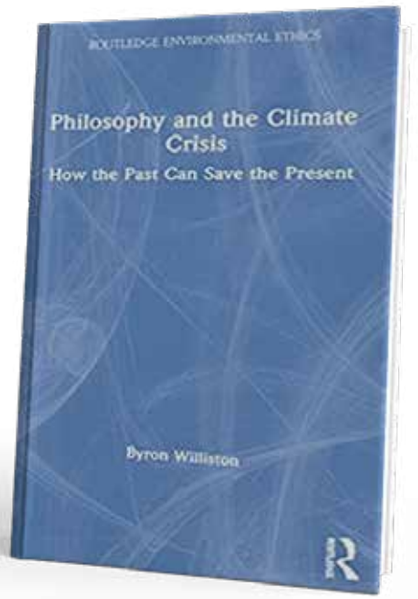

يندرج ضمن عالم الأشياء الموضوعة لخدمة البشر. ازدرى ديكارت المحيط البيئي تماما ونظر إليه من منظور المنفعة، واعتبره موردا لا متناهيا يُمكن للإنسان أن ينهل منه دون تردد، ويمكن أن نتبين كيف أدت مثل هذه الافتراضات إلى استعمال الطبيعة بكل أشكالها، مما يؤدي لاستنفاذ الموارد، والتلوث بكل أنواعه.

أعظم طلاب ديكارت هو باروخ سبينوزا، فيلسوف يهودي ولد ونشأ في أمستردام في القرن السابع عشر، تم طرد أسلافه القريبين من إسبانيا، والبرتغال، بعد قرون من الاضطهاد المتواصل في تلك الأماكن. في النهاية، أقام سبينوزا فلسفته في هذا الجو السياسي غير المستقر، حيث كان الاضطهاد والنفي طريقتين لتقسيم الجسد الاجتماعي، فبنى رؤيته للعالم على أن كل شيء واحد ومترابط بشكل جذري. على هذا النحو، هو المؤسس الحقيقي لما يمكن أن نطلق عليه على نطاق واسع «التفكير البيئي». أدت به أزمة التشرذم والنفي والاضطهاد إلى رؤية الكمال، والترابط المعقد بين الأشياء. يعطينا سبينوزا رؤية للتكامل البيئي، لكنها رؤية لا تتطور تاريخيًا.

صحح «هيجل» خطأ سبينوزا متأثرا بأزمة عصره، فقد تورطت أوروبا في أعقاب الثورة الفرنسية وظهور نابليون، وصعوده إلى السلطة في حروب مفتوحة،عكرت صفو القارة لمدة ثماني عشر عاما. لم ينظر هيجل،والعديد من معاصريه إلى نابليون على أنه طاغية حرب، بل على أنه تجسيد للحرية السياسية، وكان لهيجل نظام فلسفي هو «الديالكتيك الهيجلي» ويتعلق «بالتطور التاريخي» للحرية والحقوق السياسية، فيرى أن المجموعات هي أشياء تطورت تاريخيا، وفق نهجين،الأول :دوري،والثاني: تصاعدي، فالصدمات الكونية تتحول في أيدي الفلاسفة إلى ميتافيزيقيا، تساعد على إعادة التوجيه في خضم الأزمة.

لايُمكن الزعم أنَّ هناك علاقة حتمية صارمة بين الصدمة الجماعية، والفلسفة، ولكن أيضاً لا ننكر أنه كان بإمكان جميع الفلاسفة الخروج بميتافيزيقا مختلفة لاعلاقة لها على الإطلاق بالصدمة الجماعية الخاصة بزمانهم، وأنه ليس هناك قوة غيبية دفعتهم لتقديم رد فعل فلسفي على تلك الأزمات.

أكد الكاتب أنه لم يعد ذا مغزى أن نتحدث عما هو يدوي، أو طبيعي، فقد أصبح جوهر الطبيعة تقنيا، ولا مجال للتراجع عن هذه الحالة في العالم؛ مما يتطلب ميتافيزيقا جديدة، يطلق عليها أحادية «الأنثروبوسين» وهي فكرة أن هناك مجالًا واحدًا معقدًا بين الإنسان/ الطبيعة، وتشير إلى حقبة مقترحة يعود تاريخها إلى بداية التأثير البشري الكبير على جيولوجيا الأرض، بما في ذلك، على سبيل المثال، تغير المناخ الناتج عن النشاط البشري. كما أكد أن دراسة الميتافيزيقا له قيمة ذاتية بعيدا عن الاستخدامات التي تواجه التحديات الاجتماعية، والسياسية، والتاريخية؛ فقد كشف المفكرون العظماء في القانون الغربي عن رؤى رائعة في العقل والتاريخ، ولكن يمكن أن تصبح الأنظمة الميتافيزيقية أكثر جدوى بمجرد أن نربطها بالواقع الاجتماعي. ويسمح لنا ترسيخ هذا الارتباط بتقدير جوانب من نظرة الفيلسوف إلى العالم، والتي ربما تبدو تافهة أو غير قابلة للتصديق في غياب هذا الارتباط، ومن ثم مرة أخرى، اكتشاف أن المفكرين السابقين قد حاولوا إعادة توجيه عوالمهم في مواجهة الأزمة، يمكن أن يجعل هؤلاء المفكرين، وتلك العوالم، تبدو أقل غرابة بالنسبة لنا، مما قد يمنحنا الشجاعة في مواجهة أزماتنا من خلال بناء أواصر الخيال بين البشر عبر القرون.

يقدم الكتاب أساسا ميتافيزيقيا مميزا لعصر أزمة المناخ؛ فإن عالمنا الآن أصبح تكنولوجيا بالكامل، ولم تعد هناك فجوة ملحوظة، أو ذات مغزى بين تكنولوجياتنا وبقية العالم، من الغلاف الجوي إلى الغلاف الحيوي غير البشري إلى أجسامنا. إنه شيء واحد، والفلسفة في أفضل حالاتها نظام يمكن الوصول إليه عالميا، إنها بوابة لأعمق أسئلة الوجود الإنساني الذي يبدأ بالدهشة ويتوج في شكل من أشكال الفهم الذاتي المعزز الذي لا يستطيع أي نمط آخر من أنماط التفكير أن يضاهيه.

أظهر الكاتب رؤية ثاقبة حيث شبه أزمة المناخ بالصدمات التاريخية الكبرى ذات الأهمية، فكما أدت الاضطرابات التاريخية السابقة إلى نوع من الابتكار الفكري، ظهرت أهمية الفلسفة في هذه الأوقات التي نحياها، وبدت أهمية استخدام الحكمة إزاء القلق بشأن مستقبل الحياة. تُصر الفلسفة ببساطة على التفكير في مثل هذه المشاكل بشكل منهجي وبأكبر قدر ممكن من الدقة المنطقية والوضوح.

العنوان: الفلسفة وأزمة المناخ: كيف يمكن للماضي أن ينقذ الحاضر

المؤلف: بايرون ويلستون

الناشر: روتليدج، 2021

* كاتبة وباحثة مصرية

قاعة الاقتصاد: التاريخ الخفي للإخوة السود الأحرار

فاطمة شيخ

نايف البسامي *

من المستحيل تخيل نيو أورليانز، وبالتالي التاريخ الأمريكي، بدون ثقافة الكريول النابضة بالحياة والفريدة من نوعها. في مواجهة مجتمع أبيض قمعي، بنى أعضاء جمعية الاقتصاد والمساعدة المتبادلة مجتمعا وربطوه معًا خلال عصر العبودية، والحرب الأهلية، وإعادة الإعمار، وإرهاب جيم كرو. «قاعة الاقتصاد: التاريخ الخفي للإخوة السود الأحرار»، يتتبع لودجر بوجيل وعائلته وأصدقاءه من خلال أحداث تاريخية من ثورة هايتي إلى ولادة موسيقى الجاز التي شكلت نيو أورليانز والولايات المتحدة.

تبدأ القصة مع والد المؤلف لإنقاذ ما يقرب من قرن من المجلات المكتوبة بخط اليد، باللغة الفرنسية، من شاحنات نقل القمامة. ظهرت من صفحات المجلات واحدة من أهم المجتمعات الفكرية متعددة الأعراق في جنوب الولايات المتحدة تكونت من المُعلمين والتجار المتجولين حول العالم، والجنود، والتجار والشعراء. على الرغم من أن قانون لويزيانا صنفهم على أنهم رجال ملونون، وزنوج، وسود، رفض الإخوة الاقتصاديون العنصرية، والتلوين للنضال من أجل حق الاقتراع والتعليم للجميع.

قامت الكاتبة فاطمة شيخ، التي تنحدر من مجتمع الاقتصاديين، ببناء قصة واقعية مفصلة بدقة تُقرأ مثل رواية ملحمية. عندما يُكتب التاريخ يجب أن يكون على مستويات متعددة؛ بحيث يبين لنا الاكتساح الواسع للرجال والنساء العظماء، والاشتباكات والحروب الرئيسية، والأفكار والاتجاهات الضرورية لرؤية الشكل والوجه للعالم الذي نعيش فيه. ومع ذلك، فإن هذا الاكتساح الكبير هو نفسه مكون من اللحظات اليومية، التي لا تعد ولا تحصى في حياة الناس العاديين، والمشاكل والصراعات التي تشكل حياة الأفراد.

يقع استناد الكتاب إلى «قاعة الاقتصاد»، وهي عبارة عن جمعية مُساعدة متبادلة من الرجال السود الأحرار بحيث تعد من أعرق الجمعيات، فقد تأسست في القرن التاسع عشر الميلادي. يمكن القول بأن العبودية كانت الواقع الأسمى في تلك الفترة، ولكن مجتمع من الناس الأحرار عقد عدة اجتماعات لمناقشة حق الأفارقة في التصويت الأمريكي، بالإضافة إلى الحاجة الماسة لدعم الحزب الجمهوري التقدمي.

يسلط الكتاب الضوء على العديد من الأعضاء، ويمكن القول بأن الصوت الأعلى كان للودجر بوغيل، الذي كان سكرتيرا لقاعة الاقتصاد. امتد عمله من فترة ما قبل الحرب خلال الحرب الأهلية، وإعادة الإعمار وفجر عصر جيم كرو (قوانين جيم كرو).

عبر المرور على أطراف هذا الكتاب تصف المؤلفة فاطمة شيخ متعة البحث الذي كان مرتبطا بتراثها الخاص وتضيف قائلة: «وجدت نفسي أفهم لودجر كثيرا من خلال قراءة الضفائر التي صُنعت في كتاباته، وعندما يكون متحمسا تصبح كتاباته أكبر بكثير. وضع علامات التعجب والتأكيد مرة واحدة، وعندما يصل إلى سعادته يرسم النجوم والقلوب، كان من الممتع مشاهدة عواطفه».

يمكن القول بأن بداية هذا الكتاب الفعلية كانت في عام ١٨٥٧، في حفلة مع أشخاص من مختلف الأجناس والسود الأحرار ببداية قاعة الاقتصاد، ولا يدركون أنها سوف تكون نهاية العبودية، وبعدها بداية قوانين كيم كرو في نهاية المطاف، التي ساعدت على تعطيل وتأخير الحريات الاستثنائية للكريول الملونة.

تقول فاطمة من خلال كتابها هذا «هذا الحزب يقترب من قرار سكوت دريد. بحيث ينص قرار سكوت دريد بأن الأشخاص المنحدرين من أصول أفريقية لن يكونوا أبداً مواطنين في الولايات المتحدة الأمريكية. القرار التاريخي لسكوت دريد يتضمن الحكم الدستوري الذي ينص بأن هدف الجنسية الأمريكية لم يكن يشمل السود الأحرار أو المستعبدين. وطبقا لقانون الدستور الأمريكي للحقوق فإنها لن تحمي أي عرق أفريقي، كل الناس الموجودين في حفلة قاعة الاقتصاد لم يتم استعبادهم ولا حتى عائلاتهم. كان يسخرون من قرار دريد سكوت، وكان في اعتقادهم أنه قرار سخيف ». يمكن وصف أعضاء قاعة الاقتصاد بأنهم مثل الناس الأحرار الملونين، حيث ظلت قاعة الاقتصاد حصينة ومتينة طوال فترة العرق في أمريكا، واستمرت القاعة حتى حوالي عام ١٩٧٠.

كانت نيو أورليانز تعد منطقة متناقضة بشكل صارخ ومخيف. لفترة من الزمن، وجود أشخاص أحرار من السود فيها يُبرره القانون الأسباني «التضييق» الذي يسمح بالانعتاق الذاتي. وبالرغم من ذلك على بعد ست ساعات فقط في ولاية تكساس وبالتحديد في جالفستون، كان على المستعبدين الانتظار لعامين حتى إعلان تحريرهم، وذلك عند قدوم جنود اتحاد المنطقة.

سنة ١٨٦٥ ميلادي تعتبر نقطة تحول في التاريخ الأمريكي عند قدوم الحرية، وفي نفس السنة كانت هنالك تغييرات جارية بالفعل. يضم تعريف الكريول في الأصل مزيجا من التراث الأسباني أو الفرنسي أو الأفريقي أو الأمريكي الأصل. تعريف الكريول هنا يقصد بها الأمريكتين. لكن في أصل اللغة الإنجليزية كلمة الكريول مشتقة من اللغة الفرنسية، والتي بدورها مشتقة من اللغة البرتغالية، وتعني في الأصل «الشخص الذي ينشأ في منزل واحد». وتم تَبنّي مصطلح الكريول لتعريف أولئك الذين يمتلكون عروقا وأصولا مختلفة أو مختلطة، حدث ذلك عندما استولت أمريكا على لويزيانا عام ١٨٠٣، حيث كان ذلك قبل ٥ سنوات من عام ١٨٠٨، عندما تم حظر نقل سفن الرقيق مما أدى إلى مرور الكثير من الكريول، إما للهروب من المعاملة القاسية، أو انضمامهم إلى السكان الأمريكيين الأفارقة المحررين حديثًا. على عكس معظم أرجاء البلاد بحيث كان نصف سكان مدينة نيو أورلينز أحرارا، بدأت الكريول متعددو الأجناس، في التوافق مع الأشخاص الذين تم منحهم حق التصويت حديثًا. كانوا يسيرون من أجل نفس الحقوق، والمشاركة الاجتماعية في التصويت، كل هؤلاء الناس حرموا من حق التصويت بعد إعادة الإعمار. عقد أول اجتماع لقاعة الاقتصاد فيما يعرف الآن بدوفين، وسوف ينتقل إلى تريم أوف فيما يعرف الآن بشارع أورسولين.

يبين الكتاب الدور الكبير التي تلعبه قاعة الاقتصاد في التفوق على العبودية، من خلال أعضائها وتفاصيلهم المرتبط بهم وأيضا الدور الرئيسي في إنشاء موسيقى الجاز. في العام التاريخي للسود في الولايات المتحدة ١٨٦٥ بالتحديد في ١١ من يونيو أقيم حفلة كبير في نيوأورلينز في ميدان الكونغو، وكان لودجر وبوغيل هو المنظم للحفل، وكان هناك مقطع من كتب لودجر قد اقتبس على النحو التالي: «عند قدوم اليوم المنشود، قدم الآلاف من الناس إلى ساحة الكونغو، على الرغم من حرارة الجو، ارتدوا أفضل ملابسهم، نساء وفتيات يحملن المظلات، ورجال

يرتدون معاطف، ووصل المئات من قدامى المحاربين بالزي الرسمي. كان أطفال المدارس الملونة يسافرون في مجموعات، وكذلك فعلت العديد من المجتمعات التي تحمل لافتات وأعلاما أمريكية وترافقها فرق ميدانية».

تريد فاطمة شيخ من القُرّاء أن يروا النشاط الكبير والتقدم في وقت مبكر استمر في ولاية لويزيانا. وتضيف قائلة: «ما اكتشفته بعد أن بدأت في متابعة لودجر بوغيل، هو أن عائلته جاءت من هايتي - إحدى بلدان البحر الكاريبي - وأن والده ربما قاتل في ثورة هايتي. أود أن يرى الناس هذا التقدم في الفكر لدى لودجر».

أطلق أعضاء قاعة الاقتصاد على أنفسهم الاقتصاديين، بحيث تضم العديد من مالكي العقار المتعلمين مثل المقاولين والوسطاء الدوليين، وأصحاب متاجر الملابس، وصانعي الأحذية والموظفين. الذين اجتمعوا وشكلوا ناديا اجتماعيا مترابطا، وبنوا مجتمع المساعدات الذي غطى النفقات غير المتوقعة مثل الفواتير الطبية للأعضاء وتكاليف الدفن للمواطنين.

أغلب الاقتصاديين في قاعة الاقتصاد كانوا من الجيل الأول، بما في ذلك والد بوغيل، هؤلاء أنفسهم أصحاب العبيد كانوا أيضا مجازفين حيث تعتبر هذه الجمعيات غير قانونية بتاتا، لأن البيض عاشوا في خوف دائم من انتفاضات العبيد.

قاعة الاقتصاد كانت عبارة عن منظمة سرية في سنواتها الأولى، ولكن الاقتصاديين الأعضاء كانوا يأملون بأن أعمالهم الخيرية، وأخلاقهم الحميدة سوف تقنع المجتمع الأبيض. الممارسات التي قاموا بها يمكن تسميتها اليوم «بسياسة المسؤولية » بدون مخاوف واضحة، مفترضين أن أخلاقهم البرجوازية سوف تساعدهم على تحريك المساواة، والحقوق المدنية مع مجتمع البيض.

أجرت الكاتبة فاطمة شيخ طائفة من البحوث الرائعة حول حياة العديد من الأعضاء الاقتصاديين، خاصة حياتهم قبل الحرب. نتعرف على دعاوى قضائية متعددة، وولادات غير شرعية خارج إطار الزواج ومن خلالها جاءت مطالبة الاقتصاديين بالقيادة الأخلاقية. نحصل أيضا على صورة عميقة لكيفية انتشار العبودية في كل مكان، حيث كانت عمليات الرقيق (بيع العبيد) تتم على الأرصفة وتمسك أقلامًا تلوث الشوارع السكنية. على حد قول الكاتبة فاطمة شيخ فإن الاقتصاديين لم يكونوا متطرفين وإنما كانوا خيرين وذوي عقلية مدنية. كان بوغيل وزوجته معلمين ملتزمين بتعليم السود.

يبين الكتاب ماذا حدث للاقتصاديين بعد انفصال لويزيانا عن الاتحاد واندلاع الحرب، بحيث انضم عدد من الاقتصادين إلى وحدة الفصل العنصري التابعة للجيش الكونفدرالي، وقيادة الحرس الذي يعد نوعا من المليشيات للأشخاص الملونين. وتوضح فاطمة شيخ هنا بأنه لم يكن

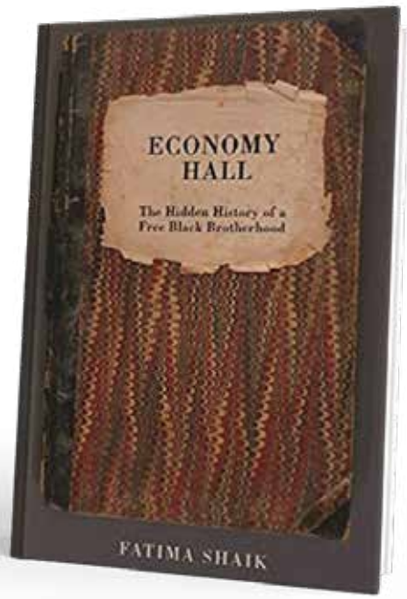

للاقتصايديين خيار سوى الانضمام رغم عدم شعورهم بالدور الكبير في القتال.

خلال تلك الفترة لم يدم دورهم كجنود كونفدرالين فترة طويلة جدا، وذلك بسبب سقوط نيو أورلينز تحت سيطرة الاتحاد في وقت مبكر من الحرب، حيث تم تحويل قيادة الحرس تحت قيادة الجنرال بنيامين بتل، وهو ما أدى إلى تحويل بوجيل، وما لايقل عن ١٠ من زملائه الاقتصاديين إلى بعض أوائل الضباط السود في الولايات المتحدة.

بمجرد انتهاء الحرب أصبحت قاعة الاقتصاد منظمة حقوق مدنية بصورة أكثر اتضاحا. يظهر ذلك في التزامها بتعليم الأطفال السود بصورة واضحة وأكثر منهجية، وإلقاء الأعضاء بأنفسهم وراء دستور لويزيانا الجمهوري الريدكالي، بحيث لم يؤكد أحقية السود في التصويت فحسب، بل سمح لهم بإنشاء أول مدرسة متكاملة في الولاية.

أخذت الكاتبة فاطمة شيخ وقتا لوصف تطور القاعة الاقتصادية بشكل أوضح في تلك السنوات. بعد فترة وجيزة من رؤية دعم الأعضاء الاقتصاديين القوي للتغييرات السياسية، يمكن أن نشاهد فشل جهودهم أثناء إعادة الأعمار. مات على الأقل اثنان من أعضاء القاعة إثر مذبحة كوفلكس سيئة السمعة عام ١٨٧٣، حيث تعرض ناخبون سود للضرب على أيدي حشود متنقلة؛ فقد انتُخِب ديمقراطي عنصري مشرفا على التعليم في لويزيانا، وهو ما وضع حدا للمدارس المتكاملة. فشل بنك فريدمان - واحد من أكثر المؤسسات الاقتصادية المدعومة - مما أدى إلى سحب القوات الفيدرالية من نيو أورلينز بعد الانتخابات الفاشلة عام ١٨٧٦.

يمكن تلخيص نجاة قاعة الاقتصاد من خلال تقليص وظائفها الاجتماعية. أدى عدم الاعتراف بقوانين جيم كرو التي تميز بين الكريول والسود، إلى تحول القاعة إلى مكان يلتقي فيه سكان نيوأرلينز، ويختلطون بحيث أنهت القاعة تركيزها على القشرة العليا لمجتمع الكريول. أصبحت القاعة ملتقى الحفلات المدرسية بالإضافة إلى الرقصات والحفلات الموسيقية في فترة كانت الموسيقى تتخمر في مدينة نيو أرلينز. أنشأت موسيقى الرغتايم - موسيقى الزنجية الأمريكية - جمالية الارتجال الفردي والجماعي، وخلال ٣٠ عاما من تخمر هذي الموسيقى، ولدت موسيقى الجاز المشهورة التي نسمعها في وقتنا الحالي. يمكننا القول بأنه تاريخ قاعة الاقتصاد مرتبط بفرقة النسر النحاسية المشهورة في تلك الحقبة، وهي مجموعة مركزية في التاريخ المبكر لموسيقى الجاز، والتي كانت تعزف بشكل منتظم بقاعة الاقتصاد، والتي من خلالها عزفت أفضل الموسيقى المحلية.

تكمن أهمية قاعة الاقتصاد في أنها تحيي ذكرى النشاط المجتمعي، الذي كان نشاطا مهما في فترة من الزمن، الذي عمل على توجيه مسار بعض الأحداث الأكثر أهمية في مدينة نيو أرلينز. على نطاق واسع، عاش كل رجال قاعة الاقتصاد أهوال التاريخ الأمريكي بين الكفاح من أجل الرخاء والتوتر المجتمعي والفردي، وبين التنوع والتجانس وكلها تحت إطار العنصرية بكل ما تعنى الكلمة من معنى. النضال من أجل الكرامة والحقوق السياسية والأساسية. إذا كان قوس الكون طويلا، فإنه ينحني نحو مؤسسات مثل قاعة الاقتصاد.

وفي خلاصة الأمر ومن وجهة نظري، يمكن القول بأن الكاتبة فاطمة شيخ عملت على وضع تطور القاعة الاقتصادية بشكل أوضح لسرد أهم الحقب الاقتصادية في تاريخ أمريكا، وتناولت بكل موضوعية واحترافية الحديث عن أعضاء قاعة الاقتصاد. الكتاب جيد يحمل الكثير من الثقافة المجتمعية، التي تساعد على الفهم الأعمق لآلية تمحور العبودية من تلك الحقبة حتى بداية القرن العشرين.

عنوان الكتاب: قاعة الاقتصاد: التاريخ الخفي للإخوة السود الأحرار

المؤلف: فاطمة شيخ

اللغة: اللغة الإنجليزية

عدد الصفحات: 544 صفحة

تاريخ النشر: فبراير، 2021

دار النشر: مجموعات نيو أورلينز التاريخية

* كاتب عماني

الخطأ في قياس التقدم: النمو الاقتصادي ونقاده

ستيفن جيه ماسكورا

وليد العبري *

قلة من الأفكار في القرن الماضي كان لها تأثير مالي وسياسي وحكومي أوسع من تأثير النمو الاقتصادي. إنَّ الاعتقاد السائد بأن النمو الاقتصادي اللامتناهي، وفقاً لقياس الناتج المحلي الإجمالي، ليس ممكنا فحسب، بل هو ضروري في الواقع لازدهار الحضارة، ويظل هدفا سياسيا قويا وطموحا للكثيرين.

بدءا من صعود نموذج النمو في الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، واستمرارا حتى يومنا هذا، يعد كتاب «الخطأ في قياس التقدم»، أول كتاب عن عدد لا يحصى من المُفكرين، الذين جادلوا ضد النمو، والطريقة التقليدية، التي تم بها قياس التقدم وتحديده. بالنسبة لنقاد النمو، كان التشكيك في معنى وقياس النمو خطوة أولى ضرورية لخلق عالم أكثر عدلا، ومساواة واستدامة. جادل هؤلاء النقاد بأن التركيز على النمو وحده لن يحل المشكلات الاجتماعية والسياسية والبيئية، وطرحوا طرقا بديلة لتحديد وقياس التقدم البشري. في المشهد السياسي العالمي اليوم - الذي يتسم بتفاوتات واسعة في السلطة والثروة وجعلها أكثر خطورة بسبب حالة الطوارئ المناخية العالمية - فإن الأفكار التي قدمها هؤلاء النقاد السابقون للنمو، يتردد صداها بصوت عال أكثر من أي وقت مضى.

استقطب النمو الاقتصادي العديد من القادة السياسيين؛ لأنه سمح لهم بتجنب معالجة المفاضلات السياسية والصراع الطبقي. لقد دعم الخيال القائل بأن البشر منفصلون بطريقة ما عن «الطبيعة» غير البشرية، متجاهلا الروابط الحميمة والكثيفة بين الاثنين. من أجل خلق مجتمع عادل ومنصف حقاً، كما يقول ماسكورا، نحتاج إلى فهم واضح لاحتياجاتنا الجماعية التي تتجاوز النمو وتعريفات أكثر شمولية للتقدم تتجاوز المقاييس الاقتصادية مثل الناتج المحلي الإجمالي.

يقدم ستيفن جيه ماسكورا، الأستاذ المشارك في مدرسة هاملتون لوغار للدراسات العالمية والدولية، جامعة إنديانا (الولايات المتحدة الأمريكية)، من منظور تاريخي، تاريخَ فكرة الناتج القومي الإجمالي (GNP)، منذ إنشائها في الثلاثينيات حتى نهاية القرن العشرين. يفحص الكتاب كيفية استخدام الناتج القومي الإجمالي في السياسة العامة، لقياس مستوى النشاط الاقتصادي لبلد ما، ويستكشف الاعتراضات الرئيسية على هذا المفهوم.

من أهم أفكار هذا الكتاب أنه على الرغم من كونها أساسية في تقدير مستوى النشاط الاقتصادي لبلد ما وتطوره الاقتصادي، إلا أن مفاهيم الناتج القومي الإجمالي والناتج المحلي الإجمالي (GDP)، كانت عرضة لاعتراضات عديدة. في الوقت نفسه، يوضح الكتاب أن اختيار استخدام الناتج المحلي الإجمالي كمؤشر اقتصادي رئيسي، وتعريفه الفعلي ليس اختيارا خاليا من القيمة، بل هو اختيار محمل بالعواقب المعيارية المهمة، حيث يُنظر إلى نمو الناتج المحلي الإجمالي على أنَّه الأكثر أهمية. معيار هام للتقدم الاقتصادي.

المؤلف لديه نهج خال من القيمة يركز على الوصف التاريخي للمفهوم وعلى الاعتراضات عليه. ومع ذلك، فإن النهج الكامل للكتاب، يقود القارئ إلى فكرة أن المفهوم الذي قد يبدو استخدامه حتميًا هو مجرد تعبير عن كيفية تصور الاقتصاديين من فترة تاريخية معينة للنظام الاقتصادي وتقدم المجتمع. تركز الفصول الستة من الكتاب، بترتيب زمني، على ست حلقات في تاريخ الناتج القومي الإجمالي، من إنشائه وإدخاله في الإحصاءات الوطنية إلى الاعتراضات المقدمة في نهاية القرن العشرين.

يعرض الفصل الأول أصول مفهوم الناتج القومي الإجمالي، وكيف بدأ استخدامه كمؤشر على مستوى النشاط الاقتصادي. يبدأ الفصل بعرض موجز للمؤشرات المستخدمة قبل الثلاثينيات في الإحصاءات الاجتماعية، وتلك التي تم إنشاؤها لقياس مستوى المعيشة. ثم يركز الفصل على مقدمة الناتج المحلي الإجمالي في الإحصاءات الوطنية. أعتقد أن إجراء تحليل أكثر تفصيلاً لمناقشات الاقتصاديين حول تعريف هذا المفهوم - خاصة حول كيفية احتساب الإنفاق الحكومي في الناتج القومي الإجمالي - كان من الممكن أن يكون مفيدا لفهم أصول المفهوم بشكل أفضل. يتناول الفصل الثاني الصعوبات التي واجهتها بريطانيا العظمى وفرنسا في محاولتهما قياس الناتج القومي الإجمالي في مستعمراتهما، التي كانت ستصبح دولتين مستقلتين في الستينيات. وتتمثل المشكلة الرئيسية في أن اقتصادهم كان يعتمد في الغالب على أنشطة الكفاف، والتي لا يمكن تقديرها بشكل كاف، حيث لم تكن هناك معلومات رسمية عن الكميات المتداولة وأسعار السوق غائبة.

يركز الفصل الثالث على الاعتراض على ما يسميه ماسكورا نموذج النمو، أي الرأي القائل بأن النمو الاقتصادي، الذي حدده الناتج القومي الإجمالي، هو «مرغوب فيه وحتمي وغير محدود أساسا». مؤيدو هذا الرأي يرون أن الناتج القومي الإجمالي هو مؤشر رئيسي على الرفاهية. يناقش الفصل نوعين من الانتقادات: انتقادات بيئية واجتماعية. تظهر الانتقادات البيئية أن الناتج القومي الإجمالي لا يعكس تدهور البيئة، وأن التركيز على النمو الاقتصادي سيؤدي إلى استنفاد الموارد والتلوث. يجادل النقاد الاجتماعيون بأن التركيز على النمو أنتج مجتمعا يتميز بالانشغال بالإنتاجية والنزعة الاستهلاكية، مما سيعيق في النهاية حرية الإنسان. حتى إلى درجة أكبر، فإن الناتج القومي الإجمالي ليس مناسبا لبلدان العالم الثالث لأن نمو الناتج القومي الإجمالي غالبا ما يكون مصحوبا بمستويات متزايدة من عدم المساواة، ولا يضمن تنمية أي بلد. أثار بعض الاقتصاديين اعتراضا مباشرا على نموذج النمو قائلين إن السعي لتحقيق النمو الاقتصادي كان مضللا. كان الاقتصادي الروماني نيكولاس جورجيسكو روجين شخصية رئيسية في هذا الرأي، من خلال إظهار أن النظرية الاقتصادية القياسية لا

تتضمن البعد الفيزيائي الحيوي للحياة. تم عرض وجهة نظره وآراء مماثلة أخرى بإيجاز في الجزء الأخير من الفصل. يؤدي الرأي القائل بأن الاقتصاد جزء لا يتجزأ من العالم الطبيعي إلى إنشاء نظام اقتصادي جديد: الاقتصاد البيئي.

يركز الفصل الرابع على الحركة ضد نموذج النمو الذي نشأ في «حدود النمو»، وهو تقرير مؤثر للغاية بتكليف من نادي روما وتم نشره في عام ١٩٧٢، والذي يُجادل بأنَّ العالم يحتاج إلى تغيير كبير في استهلاك الموارد، من أجل تجنب الانخفاض في عدد السكان والقدرة الصناعية. يوضح ماسكورا كيف أدى نموذج النمو إلى زيادة هائلة في استخدام الطاقة، وكيف سيؤدي النمو السكاني القوي إلى الاستهلاك المفرط والتلوث. يستنتج بعض الاقتصاديين أن الحل الوحيد هو الانتقال إلى نظام يركز على الاستقرار والحفظ. ويذكرون أن هناك حاجة إلى نظام حكم دولي جديد لإنشاء نظام أكثر إنصافا، حيث يمكن لجميع الناس الاستفادة من التنمية الاقتصادية.

الفصل الخامس يناقش بعض المقترحات لتحسين الناتج القومي الإجمالي كمؤشر اقتصادي. يناقش القسم الأول كيفية استخدام بعض المؤشرات، لأن الناتج القومي الإجمالي ليس مؤشرا جيدا لنوعية الحياة. تم تصميم مؤشرات جودة الحياة هذه لتكمل بدلا من أن تحل محل الناتج القومي الإجمالي. المشكلة الرئيسية في هذه المؤشرات، هي أنها لا تبدأ من توصيف متفق عليه لنوعية الحياة. يصعب تحقيق مثل هذا التوصيف، وهذا هو السبب الرئيسي لعدم اتباع هذه المؤشرات بعناية واعتبارها مثل الناتج القومي الإجمالي. ومع ذلك، فإنَّ استخدام بعض مؤشرات جودة الحياة لا يمثل اعتراضاً جادًا على الناتج القومي الإجمالي: إذا لم نطلب الكثير من مؤشر واحد، فيمكننا قبول أن المؤشرات الأخرى يمكن أن تكون مفيدة أيضًا. يفحص القسم الثاني من الفصل الحلول التي تم اقتراحها لدمج العمالة غير المأجورة. هذا مهم ليس فقط لأنَّ الصيغة القياسية تقلل من الناتج القومي الإجمالي، ولكن أيضاً لأن النمو الاقتصادي يزداد بشكل مصطنع عندما يتم استبدال العمل غير المأجور الكفاف بالعمل المأجور. في الوقت نفسه، فإن دمج العمالة المنزلية في الناتج القومي الإجمالي يعني علامة على الاعتراف بالنساء، اللائي يقمن بمعظم هذا النوع من العمل. يتعامل القسم الأخير مع بعض المحاولات لدمج التلوث، واستخدام الموارد في حساب الناتج القومي الإجمالي.

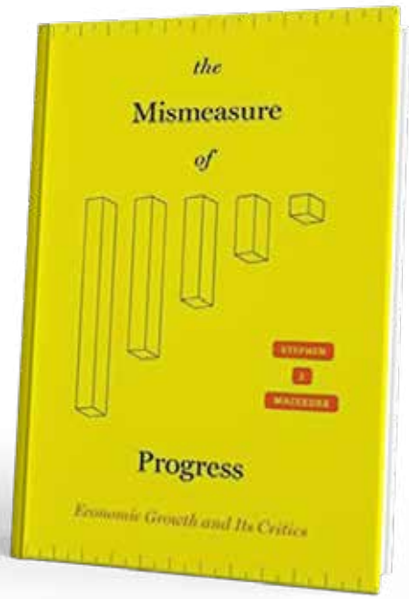

الفصل السادس مخصص للمناقشات حول الناتج القومي الإجمالي في نهاية القرن العشرين. يبحث الفصل في بعض المقاييس البديلة للرفاهية، مثل مؤشر التنمية البشرية (HDI)، ومؤشر التقدم الحقيقي (GPI) والسعادة الوطنية الإجمالية. من بين هؤلاء، حقق المؤشر الأول فقط أهمية معينة كمقياس للتنمية. ويبحث هذا الفصل أيضا في كيفية اعتبار النمو الاقتصادي، في السبعينيات، في البلدان المتقدمة، هدفا رئيسيا للسياسة الاقتصادية. يقدم الجزء الأخير من الفصل نظرة عامة سريعة على الجهود المبذولة لمراعاة التدهور الطبيعي، والعمل غير المأجور في الناتج المحلي الإجمالي. من الأحداث المهمة في تاريخ النمو الاقتصادي الانتقال من الناتج القومي الإجمالي، إلى الناتج المحلي الإجمالي، كمقياس مركزي للنشاط الاقتصادي لبلد ما. هذه الحلقة تستحق معالجة أكثر حذرا.

يوضح ماسكورا أن اختيار الناتج القومي الإجمالي كمفهوم رئيسي لقياس مستوى النشاط الاقتصادي لبلد ما له عواقب وخيمة. إن اختيار استخدام بعض المفاهيم وجمع بعض البيانات ليس محايدا، ولكنه يأتي مع مجموعة من الافتراضات حول ما هو مهم للمجتمع ولتمييز تقدمه. على سبيل المثال، كما يوضح المؤلف، جادل كوزنتس، أحد مؤسسي مفهوم الناتج القومي الإجمالي، بأن الإنفاق على التسلح لا ينبغي اعتباره جزءا من الناتج القومي الإجمالي، حتى لا يمنح الحكومات حافزا ضارا لزيادة الإنفاق العسكري. وفي الوقت نفسه، يرى بعض الاقتصاديين أنه ينبغي احتساب عمل المرأة المنزلي بدون أجر في الناتج الإجمالي القومي، وبذل جهود لتحديدها كميا. هذه المواقف هي دليل ضمني على حقيقة أن قرار تضمين أو استبعاد مخرجات بعض الأنشطة من المنتج الوطني، هو قرار محمّل بالقيمة. عنصر آخر، لم تتم مناقشته في الكتاب، مهم أيضا. قرار تضمين بعض الأنشطة في تقدير الناتج القومي الإجمالي مدفوع أيضا بالظروف العملية. وبالتالي، فإن عدم تضمين العمالة غير المأجورة في الناتج القومي الإجمالي، والناتج المحلي الإجمالي هو أيضا نتيجة حقيقة أن قياسها سيكون صعبا للغاية، وسيخضع لمناقشات لا مفر منها. توضح هذه الصعوبات العملية لقياس العمالة غير المأجورة والتدهور البيئي لماذا؟ على الرغم من الاعتراضات الهامة التي نوقشت في جميع أنحاء الكتاب، فإن مفهوم الناتج المحلي الإجمالي، في تعريفه الفعلي، قد حافظ على مكانته المركزية في الإحصاءات الاقتصادية.

ختاما، يمكن القول بأن الناتج القومي الإجمالي، هو مقياس مألوف لحجم الاقتصاد، والتغير في الناتج القومي الإجمالي هو مقياس مألوف لمعدل النمو الاقتصادي. لكن القرارات المتعلقة بما يجب تضمينه في الناتج القومي الإجمالي، وكيفية تقييم هذه المكونات تدور حول كيفية تصور النشاط الاقتصادي، من قبل علماء الاجتماع، والإحصائيين المسؤولين عن بناء المقياس. يتتبع ماسكورا نشأة الفكرة ومسارها على مدار القرن العشرين. يوضح كيف شجع اختراع GNP على التركيز على النمو الاقتصادي الكلي كهدف للسياسة الاقتصادية، ويصف الخط الطويل من المتشككين الذين انتقدوا GNP لإهمالهم العمل غير السوقي، وتجاهل توزيع الدخل، والفشل في حساب استنفاد الموارد والبيئة. التدهور، والتركيز على الإنتاج بدلا من رفاهية الإنسان أو سعادته. وبذلك يخرج القارئ مقتنعا أن الناتج القومي الإجمالي، على الرغم من أنه مؤشر موجز غير كامل لحالة الاقتصاد، ويلعب دورا كبيرا في المفاهيم المعاصرة للسياسة الاقتصادية والأداء.

اسم الكتاب: الخطأ في قياس التقدم: النمو الاقتصادي ونقاده

المؤلف: ستيفن جيه ماسكورا

دار النشر: مطبعة جامعة شيكاغو

اللغة: اللغة الانجليزية

سنة النشر: 2020م

* كاتب عماني

مواقع البناء في التاريخ: البدء من جديد، إعادة البناء، الولادة من جديد

فيديريكو رامبيني

فاتنة نوفل *

في كتابه المكون من سبعة فصول مع مقدمة وخاتمة، يستحضر المؤلف آخر ألفي عام من التاريخ مستعرضاً اضمحلال حضارات وانبعاثها من جديد باختيار بعض التقاطعات الحاسمة في الماضي ويعرّف هذه الفترات على أنها مواقع بناء تاريخية وهي حقب تم البدء منها في بناء حضارات جديدة وهو ما يعني النهوض من جديد بعد الكارثة.

أولى هذه الحقب السبع التي يذكرها الكاتب هي سقوط الإمبراطورية الرومانية والتي سلط الضوء فيها على حقيقة خفية وضارة وهي ظاهرة انقراض الروح المدنية والشعور بالانتماء إلى المجتمع كما هو الحال اليوم، واصفاً القرون الأخيرة للإمبراطورية بأنها سلسلة من الأوبئة والأضرار البيئية وهو ما أضعف المقاومة الرومانية للغزوات البربرية ما أدى إلى تراجع سياسي واجتماعي وثقافي حيث يوضح أن «التحالف بين الحرب والغزوات الأجنبية والطاعون وتغير المناخ تآمر لإعادة إيطاليا من ألف عام من التقدم المادي إلى منطقة متخلفة في أوائل العصور الوسطى» كما لوحظ عدم قدرة الإمبراطورية على تجديد نفسها على الرغم من تخصيص ثلثي الميزانية للدفاع والجيش وهنا يقول رامبيني: «يصبح الإنفاق العسكري سبباً للانهيار المالي وخنقاً للاقتصاد ولا يمكنه حتى ضمان الأمن بعد ذلك وهو ما أشار له أوسفالد شبينغلر في كتابه (انحدار الغرب) في تناوله لأسباب سقوط روما لشرح تراجع الحضارات الأوروبية اليوم، كذلك ما ورد في مذكرات ماركوس أوريليوس أن وباء جالينوس أو أنطونيوس قد ضرب الإمبراطورية في عام ١٦٥ وتبع ذلك وباء عام ٥٤٢، أول طاعون في العصور الوسطى لتتداخل ميزانية الجائحة مع تلك المخصصة للغزوات وهو ما أدى إلى الأمية الجماعية التي عالجها الرهبان بكفاءة وصولاً إلى عصر النهضة.

انتقال الولايات المتحدة من العبودية إلى الانفصال وإعادة الإعمار في عهد لينكولن هو أيضاً موقع بناء تاريخي. إن نموذج التغلب على الأزمة لم يحدث فقط مع إلغاء العبودية التي كانت القضية الأكثر إثارة للجدل بين معسكري شمال وجنوب الولايات المتحدة والتي نجح أبراهام لنكولن خلالها وفي خضم الفقر الجماعي من تمرير ثلاثة تشريعات لخدمة المواطنين وهو ما عُرِف بـ «الصفقة الجديدة» والتي أُعتبرت الأكثر جرأة في الابتكار السياسي وغيَّرت تاريخ أمريكا وهي قانون السكك الحديدية في المحيط الهادي والذي بدأ ببناء خط من نيويورك إلى كاليفورنيا؛ تخصيص الأراضي الغربية للمواطنين وتمويل نظام الجامعة لوضع حد للحرب الأمريكية وتوحيد الأمة. يذكرنا رامبيني: «من بين جميع الصراعات التي خاضتها الولايات المتحدة فإن الصراع الذي قتل أكثر من غيره هو ذلك الذي خاضه الأمريكيون ضد بعضهم»، أكثر من الحربين العالميتين وأكثر من حرب فيتنام، كانت مذبحة داخلية ملأت المقابر في الولايات المتحدة بسقوط سبعمائة ألف شخص.

كان مفهوماً حتى النهاية أن الحرب المريرة لا تناسب أحداً وكان قانون إعادة البناء العسكري لعام ١٨٦٧ هو أول فعل لبداية تاريخ بناء موقع تاريخي في أمريكا، تم تقسيم الجنوب إلى خمس مناطق يحكم كل منها جنرال شمالي لإنشاء مجالس تأسيسية وافتتاح حكومات محلية جديدة. ومع ذلك، عشية عيد الميلاد عام ١٨٦٥ في ولاية تينيسي، وُلدت جماعة كو كلوكس كلان المناهضة للجمهورية وقوانين المساواة التي فرضها الشمال ومعارضة لإعادة توحيد الولايات المتحدة. مارست المنظمة عمليات إعدام خارج نطاق القانون وقامت كذلك بالتعذيب والغارات الليلية وحرق منازل «المتعاونين» البيض والاعتداء على السود ثم على اليهود والإيطاليين. حتى الآن، «لا يعتقد الكثير من البيض الجنوبيين أن القيم الأخلاقية والعدالة قد انتصرت مع أبراهام لنكولن».

هناك أيضاً أزمة عام ١٩٢٩ وهي أم كل الأزمات الاقتصادية، كانت السنوات التي سبقتها -العشرينيات الذهبية أو عصر الجاز- اتسمت بالمرارة، وكانت أوقاتاً اتسعت فيها المسافة بين الأغنياء وأغلبية السكان بشكل رهيب. في تشرين أول/أكتوبر ١٩٢٩، خسر مؤشر وول ستريت سبعة وثلاثين في المائة في جميع أنحاء أمريكا حيث اقتحم المدخرون البنوك وشلوا نظام الائتمان، لذلك قرر تيدي روزفلت تنظيف النظام المالي غير المنظم الذي يُمَكِّن بعض المصرفيين فيه بتقرير مصير ملايين المدخرين وتم إنشاء الكونجرس الاحتياطي الفيدرالي الذي أصدر بعد سنوات قانون جلاس-ستيجال وهو حجر الزاوية في التمويل العالمي وهذا يخلق جداراً كبيراً بين تجارة البنك التجاري (الذي يجمع الودائع ويقدم القروض) وتجارة البنك الاستثماري الذي يعمل في البورصة عن طريق المخاطرة، ولادة جديدة وموقع بناء تاريخي عام ١٩٠٧ وانهيار عام ١٩٢٩.

ألان كروجر، الرجل الثاني في وزارة الخزانة للسياسة الاقتصادية في عهد باراك أوباما صاغ مصطلح «منحنى غاتسبي العظيم» وأظهر أن التفاوتات الحالية قد عادت إلى مستويات عشرينيات القرن الماضي، إذا كانت أزمة عام ١٩٢٩ هي الأصعب على الإطلاق فقد حدثت بالفعل في عام ١٩٠٧ أول أزمة عالمية في القرن العشرين.

خطة مارشال لعام ١٩٤٧ هي موقع بناء آخر: بهذه المساعدة، بدأت أوروبا في التعافي بعد أكثر الصراعات تدميراً حيث لعبت الولايات المتحدة دور البطلة في إعادة بناء الحضارة وكان إصدار القروض الأمريكية للدول الأوروبية المُدَمَّرة بما في ذلك ألمانيا بمثابة وقود للنهضة الأوروبية، أُجبرت بون من خلالها على أن تُولد من جديد في شكل ديمقراطي ومدني وسِلْمي وتم طرد اثني عشر مليون ألماني من وسط وشرق أوروبا وأعيدوا إلى ألمانيا. بهذا الخصوص تحدثت صحيفة نيويورك تايمز عن «القارة السوداء الجديدة» واصفةً فترة ما بعد الحرب كالعصور الوسطى الحديثة تتكون من المعاناة والعنف وصولاً إلى التقنين في الشتاء القارس عامي ١٩٤٦-١٩٤٧ في لندن.

قال المؤرخ الإنجليزي توني جدت إن الحرب العالمية

الثانية كانت أيضاً وقبل كل شيء تجربة مدنية وكان محقاً؛ لأنه بدون خطة مارشال لإعادة إعمار أوروبا، لم تكن أوروبا التي نعرفها اليوم. القروض للقارة القديمة شكلت عُشر الميزانية الفيدرالية للولايات المتحدة وجعلت المعجزة الألمانية والفرنسية والإيطالية ممكنة لتنهض ألمانيا وفرنسا وإيطاليا من ساحات التاريخ الخاصة بكل منها.

مارشال« كان مقتنعاً بأن أمريكا يجب أن تساعد أوروبا في توحيد قواها في نظام سِلْمي جديد يشمل ألمانيا نفسها». ومع ذلك، كان على الأوروبيين أن يساعدوا بعضهم البعض أولاً وقبل كل شيء وهكذا فعلوا: كان مجمع الفحم والصلب (ECSC) أول جنين للاتحاد الأوروبي وكان أساسه موضوعين: ألمانيا العسكرية لتجنب حروب جديدة وتقرر وضعها مع دول أخرى، و أمريكا المسلحة بشكل جيد من ناحية أخرى.

موقع بناء آخر في كتاب رامبيني هو «معجزات» ما بعد الحرب، كانت المعجزة الفرنسية الأقل احتمالاً من بين الدول الأوروبية حيث تعرضت فرنسا لثلاث هزائم متقاربة -الحرب العالمية الثانية وحرب الهند الصينية والجزائر- بالإضافة إلى نظام سياسي محطم، وكان التحدي الفرنسي هو إعادة توحيد الأمة. حدثت نهضة باريس من جديد بعد المعركة في الهند الصينية وإندونيسيا وأصبح شارل ديغول في ذلك الوقت أسطورة ورمزاً للجمهورية، وكان قد نظّم المقاومة من لندن ثم وضع فرنسا في صدارة الجغرافيا السياسية العالمية.

منذ خمسينيات القرن الماضي وفي انتعاش كامل، سرقت باريس دور فيينا وبرلين في نظام رئاسي يتضمن الانتخاب المباشر لرئيس الدولة بالاقتراع العام، نظام جديد للاستقرار والانطلاق والذي يضمن التناوب أيضاً.

يُعْتبر صعود اليابان موقع بناء آخر في التاريخ وانطلاقها هومثال ناجح لبناء دولة. صعدت اليابان إلى قمة الكوكب من حيث الأهمية الجيوسياسية منذ عام ١٨٩٥ وهزمت الإمبراطورية اليابانية آنذاك الصينيين في جزيرة فورموزا وبعد ذلك بعشر سنوات روسيا القيصرية. انتصرت في فرساي وغزت كوريا ومنشوريا (شمال شرق الصين) في عام ١٩٣١. بعد التجربة المؤسفة والمريرة للسيطرة الأمريكية عليها، استوردت اليابان الديمقراطية الليبرالية كما تصفها أمريكا. ماك آرثر كان «ديغول الياباني» الذي رسى على متن حاملة الطائرات الأمريكية ميسسوري في ٢ ايلول/سبتمبر ١٩٤٥ في خليج طوكيو بعد أن حصل على استسلام غير

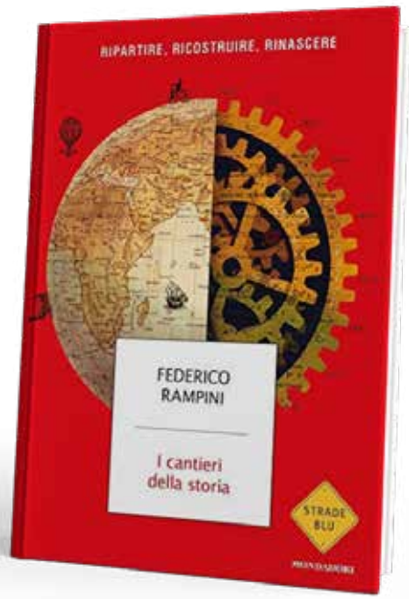

مشروط من طوكيو، هو من مهَّد الطريق ليابان كانت ستسبب في الثمانينيات لإدارة رونالد ريغان في الكثير من المتاعب في الأمور التجارية؛ حيث كتب دستور اليابان وفرض إصلاحات اقتصادية وسياسية. يتذكر رامبيني أنه في ذلك الوقت نضجت «ديكتاتورية عسكرية أمريكية» غير مسبوقة، ولكن تم وضع الأسس لديمقراطية ليبرالية حديثة تقوم على مبدأ السِلْم. تحت حكم ماك آرثر، أصبحت اليابان دولة ديمقراطية غيرمتجانسة. لقد أُجبر ترومان على إقالة الجنرال في ١١ نيسان/ أبريل ١٩٥١ والذي كان بمثابة صدمة لليابانيين «لأن الأخير كاد أن يكون على عتبة انقلاب» حيث كان رئيساً لقوات الاحتلال في اليابان ورئيس القتال في كوريا كما أصبح شخصية تاريخية للإدارة الديمقراطية في واشنطن.

كان النهوض مرة أخرى عام ١٩٦٠ لتصبح اليابان القوة العالمية الخامسة. في إدارة الوباء لا يسع المؤلف إلا أن يشير إلى المرونة الاستثنائية لليابان أثناء الجائحة التي تم التقليل من شأنها في الغرب أو تمت تصفيتها من خلال بعض الصور النمطية السطحية وتجاهل الإحساس القوي بالهدف المشترك والروابط المجتمعية التي تغلف بقوة جميع المواطنين.

انتهت المعجزة الاقتصادية اليابانية في عام ١٩٨٩ وهي سنة مهمة في تاريخ الصين وهي آخر مواقع بناء في التاريخ التي حللها المؤلف. درس القادة الشيوعيون الصينيون نظام النهضة الياباني على نطاق واسع وبعد مذبحة ثورة ماو تسي تونغ الثقافية، وُلِدَ التنين من جديد مع دنغ شياو بينغ، وبعد عزلة دنغ الدولية بعد واقعة ساحة تيانانمن وتأثر الصين بالعقوبات الأوروبية والأمريكية، بدا في ذلك الوقت أن سنوات المبادرات الصينية قد تلاشت. ومع ذلك، على عكس الاتحاد السوفياتي الذي انهار في ذلك الوقت، تعافت الصين لتدهش الجميع تقريبًا ولتصبح أقوى من أي وقت مضى. يتذكر رامبيني أن تيانانمين «كانت بداية إعادة الإعمار وخلفية ولادة جديدة وعشية إعادة التشغيل لم يصدقها كثيرون في ذلك الوقت».

من ناحية أخرى، إن الصين ما بعد ماو وما بعد دنغ هي الصين التي تُبْعَث من جديد تمثل موقعي بناء في التاريخ جعلا من الصين التي لدينا اليوم تحت أعين الجميع. يتذكر رامبيني أن دنغ كان قادراً على فهم اللحظة المناسبة لفتح الصين على العالم والاستفادة من العولمة والفرص التي تتيحها. من ناحية أخرى، فإن فهم لحظتك والعمل على استغلالها هو أساس كل ولادة جديدة لجميع مواقع البناء في التاريخ.

من المؤكد أن الفترة التي نعيشها ستُذكر في كتب التاريخ المعاصر باعتبارها لحظة كان من الضروري فيها فتح مواقع بناء كبيرة لإعادة البناء الاجتماعي والاقتصادي والصحي على المستوى العالمي.

لا يعني ذلك أن التاريخ يعيد نفسه ولكن بالتأكيد الطرق والدروس التي تأتي من هذه القراءات يمكن أن تساعدنا اليوم في اتخاذ أفضل طريق لبناء مجتمع أكثر إنسانية. من المؤكد أن هذه الفترات تتميز أيضاً بشخصيات عظيمة من الرجال والنساء الذين تمكنوا من تجاوز أنفسهم وقناعاتهم الشخصية وتوسيع آفاقهم ولديهم القدرة على رؤية ما وراء أنفسهم مع الذكاء لتغيير رأيهم والانفتاح على مستوى التنوع. قراءة يمكن التوصية بها لكل من له دور سياسي ويريد حقاً الانشغال بتصميم المستقبل والغد وليس مجرد التفكير في مصلحته الشخصية.

العنوان: مواقع البناء في التاريخ: البدء من جديد، إعادة البناء، الولادة من جديد

المؤلف: فيديريكو رامبيني

دار النشر: مونداوري

بلد الإصدار: إيطاليا

لغة الكتاب: الايطالية

تاريخ الإصدار: تشرين ثاني/نوفمبر 2020

عدد الصفحات: 252

* مترجمة عربية مقيمة في إيطاليا

استشراف الممكن.. كيف نفكر فيما يمكن أن يحدث لنا، وما يمكن أن نفعله

المؤلف: هود غويغين ولوران جان بيير
الناشر: دار لا ديكوفيرت، فرنسا.
تاريخ النشر: 2022م
عدد الصفحات: 336 صفحة

إن علاقتنا المتناقضة مع الممكن تكشف عن صعوبات كثيرة لتغيير المجتمع جذريًا. إن "الممكن"، الذي تُعظمه الرأسمالية في شكل إمكانات، ويُخلط بينه وبين ما هو مرغوب فيه من قبل أولئك الذين يعارضونه بالبدائل، هو، في الغالب، مجرد وهم، عندما لا يكون ستارا للمصير. في مواجهة التحديد والاستباق للاحتمالات التي ترصدها كل قوة، لا يمكننا إعادة فتح الأفق إلا من خلال إلقاء نظرة أخرى على الاحتمالات الكامنة التي يكتنفها الواقع.

لا تنبؤات، ولا برامج، ولا توقعات محسوبة أو يوتوبيا الدراسات؛ لأن استشراف الممكن المقترح في هذا الكتاب يهدف لإبطال طبيعة المستقبل من خلال أخذ إمكانات الحاضر على محمل الجد. وهكذا يجدد هود غيوين ولوران جانبيير تقليدًا فكريًا، بالاعتماد على أعمال ماركس وويبر، مستلهمين أصول علم الاجتماع والنظرية النقدية. وقد أبرزا جدواها في تحديد الاحتمالات بصرامة وتفكير إستراتيجي ومدى إمكانية تحقيقها.

لقد فصل القرن الماضي وعارض في كثير من الأحيان اليوتوبيا وعلوم المجتمع والنقد الاجتماعي. لكن الكتاب يحاول أن يجمعها مرة أخرى لاستعادة شروط الأمل. اليوم قد يكون الكتاب الترياقَ الأكاديمي والسياسي لعجز النقاد على تفكيك تعقيدات الحاضر وتعذر استشراف المستقبل.

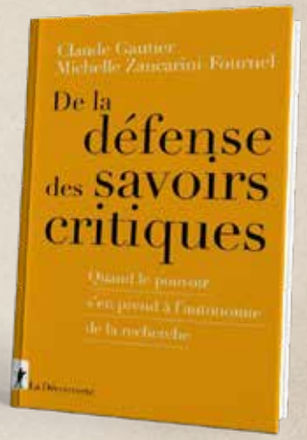

الدفاع عن المعارف النقدية

المؤلف: كلود غوتييه وميشيل زانكاريني فوريل
الناشر: دار لاديكوفيرت، فرنسا.
تاريخ النشر: 2022م
عدد الصفحات: 272 صفحة

أصبحت استقلالية البحث واستقلالية الجامعات اليوم موضع تساؤل من قبل السلطة السياسية والاقتصادية، المدعومة من قبل بعض المثقفين. إن الجدل الأخير حول "انحرافات الهوية" والطابع الإيديولوجي المفترض للعلوم الاجتماعية مظهر واضح للعيان. لذلك تشكك هذه الدراسة في مفاهيم المشاركة النقدية والحياد من خلال وضعها في سياق التاريخ الحاضر، ثم من خلال النظر في ثلاث لحظات حاسمة ظهر فيها سؤال استقلالية الجامعة والمعرفة للنقاش العلني: قضية دريفوس، مايو ويونيو 1968، والحركة الاحتجاجية ما بين 2020-2019 ضد قانون برمجة البحث.

يؤدي هذا المنظور إلى فهم أكثر عمومية للعلاقة بين العلم والقيم: من خلال الطعن في القراءات القطعية للمقولات الكلاسيكية لإميل دوركهايم وماكس ويبر. يدعونا هذا الكتاب إلى إعادة التفكير في فكرة الحياد وبناء أخلاقيات المناقشة النقدية.

بينما المناهج الأكاديمية الجديدة، التي تؤكد على تشابك الهيمنة الخارجية وتثير القلق والنقد والرفض، يوضح المؤلفان أنها تسمح بالتفكير في كونية تعددية من أجل مجتمع الحاضر والمستقبل.

اللغة الفرنسية
سعيد بوكرامي

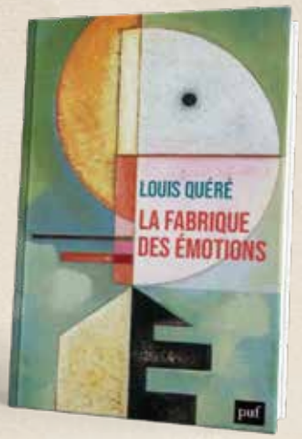

صناعة المشاعر

المؤلف: : لوي كيري
الناشر: دار بيف، باريس - فرنسا.
تاريخ النشر: 2022م
عدد الصفحات: 425 صفحة

تتحكم مشاعرنا في طريقة إدراكنا للعالم، وتضعنا على المحك لنتصرف جنبا إلى جنب مع العقل. وإذا كان يجب البحث عن الحداثة في سيكولوجيا الموضوع، فإن البحوث الحديثة، التي تشمل علم الأعصاب وكذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية، تميل إلى اعتبار العواطف محركا لأفعالنا، وتوجهها نحو البيئة التي تصنعها وتقوم بتعديلها. يقترح هذا الكتاب استكشاف أوجه التقدم في علم المشاعر، وإعطاء أهمية للبراغماتية، دون إهمال المقاربات الظاهرية. وعلى النقيض من أطروحات علم الأحياء العصبية التي قد تقلل من قوتها البيولوجية، فإن المؤلف مهتم بالأبعاد الاجتماعية الثقافية والتعبيرية للمشاعر التي يدافع عنها ديوي ويتغنشتاين. كما يتم تناول ظاهرة العواطف الجماعية من زاوية اجتماعية وأنثروبولوجية تبدأ من عمل دوركهايم وماوس، للتأكيد على دور المجموعة في نشأة العواطف المدمرة في بعض الأحيان، ولكن الإبداعية أيضا. وتحليل هذه الظاهرة حاسم لفهم الأحداث السياسية وما تثيره من مشاعر اجتماعية، فضلا عن الطقوس والممارسات الفنية.

اللغة الإنجليزية
محمد الشيخ

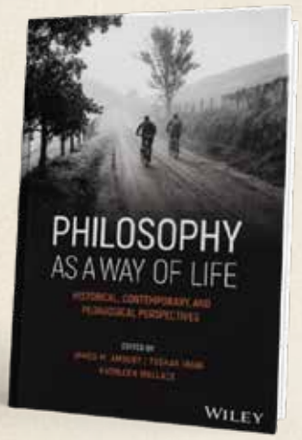

الفلسفة سبيلا للعيش

المؤلف: تأليف جماعي
تحت إشراف جيمس أمبوري وتوشاس إيراني وكاثلين والاس
دار النشر: ويلي
تاريخ النشر: 2020م

طغى على الفلسفة الحديثة خوضها في الإعضالات الأنطلوجية والإبستمولوجية والسياسية والأخلاقية، وكان أن نسيت الخوض في إشكال الإشكالات كلها: معنى العيش. وهو الإشكال التي كانت قد ناقشته المدارس الفلسفية الإغريقية الرومانية -الرواقية والأبيقورية والشكية- ثم بعض فلاسفة الإسلام الذين، مع الأسف، صار هذا الجانب من فلسفتهم نسيا منسيا ـ الكندي: "في الحيلة لدفع الأحزان"، الرازي: "كتاب السيرة" ـ إلى أن جاء الفيلسوف الفرنسي بيير هادو؛ فكان أن أحيا هذا التقليد في التفلسف في كتابه: "الفلسفة سبيلا للعيش (2001)". والكتاب الذي بين أيدينا يندرج في هذا السياق؛ إذ يعود ليستلهم التقليد الفلسفي القديم الذي كان يدرك الفلسفة بحسبانها دليلا عمليا للعيش، بل وطريقة للحياة. وهو يأخذ بيدنا ليقوم بجولة تاريخية حول هذا الفهم للفلسفة من حيث هي نهج حياة. لكنه لا يبقينا سجناء الماضي، بل يعرّج على ما يقابل هذا الفهم في الفلسفات الحديثة والمعاصرة. وهو يسعى إلى إظهار مقتضيات هذا الفهم للفلسفة وانعكاساته على تربية النشء في إطار محبة الحكمة؛ وذلك من حيث ما كانت هي عقائد تدرّس وتُلَقّن، وإنما هي تساؤلات تفتح على حياتنا كيف نحياها ولِمَ ولأية غاية يا ترى. ومن تم ما كان كتابا يهم المتخصصين وحدهم، بل هو كتاب لكل من يريد أن يستأنس بالفلسفة استئناسا.

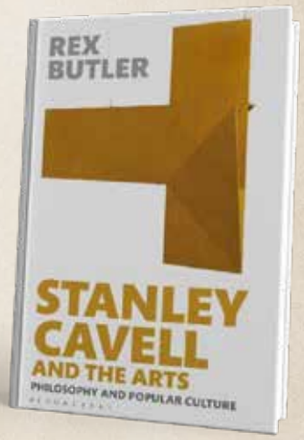

ستانلي كافل والفنون (الفلسفة والثقافة الشعبية)

المؤلف: ريكس بوتلر
دار النشر: بلامسبوري أكاديميك
تاريخ النشر: 2020م

اللغة الإنجليزية
محمد الشيخ

يعد الفيلسوف الأمريكي الراحل ستانلي كافل (1926–2018) أحد أبرز الفلاسفة المعاصرين الذين عنوا بالفنون البصرية والسمعية؛ من سينما ومسرح وموسيقى وغيرها، وذلك منذ كتابه الأول عن أنطولوجيا الفيلم (1971) إلى كتابه عن الميلودراما في هوليود وصورة المرأة (1997)، مازجا في هذا التناول بين الدراسة الفلسفية والممارسة الفنية؛ إذ كان الرجل فنانا مِفَنًّا؛ فضلا عن كونه فيلسوفا. وهذا الكتاب ينظر في كتابات ستانلي كافل الجمالية، وفي أولئك الذين تأثر بهم؛ متتبعا مساره خلال خمسين عاما غطى فيها ستانلي كافل شؤون الفن البصري والتصوير والموسيقى الكلاسيكية وإخراج مسرحيات شكسبير ومسرحيات صمويل بيكيت وميلودراما هوليود... والكتاب يستقصي كل هذا مقدما لمحة شاملة وضافية عن كتابات ستانلي كافل الفنية والجمالية، ومسوّقا إياها في سياقها من فلسفة الرجل، ومحللا على وجه التدقيق طريقة تناوله للفنون الخاصة، وناظرا في تلك الفنون التي أثرت فيه على وجه التخصيص.

مستقبل الدولة (الفلسفة والسياسة)

المؤلف: تأليف جماعي تحت إشراف أرتمي ماجون
دار النشر: روان وليتلفيد بابليشر
سنة النشر: 2020م

اللغة الإنجليزية
محمد الشيخ

ورثنا عن الفلسفة الحديثة، إلى حدود نهاية القرن التاسع عشر، أن بات الفلاسفة في الدولة على مذهبين قصيين: مذهب النُّفاة إلى حد شيطنة الدولة («المسخ البارد» حسب عبارة نيتشه) ومذهب المُثْبِتَة حد تأليه الدولة («الرب الفاني» وفق تعبير هوبز أو هيجل). والسبب في ذلك دور الدولة القوي في تاريخ الأمم؛ إذ كانت هي الشكل السياسي المهيمن، على الأقل في القرنين الماضيين؛ حتى أنه إنْ أنت لم تهتم بها فإنها تهتم بك. على أن الكثير من الباحثين أمسوا يتحدثون اليوم عن «أزمة الدولة»؛ وذلك لعلتين: تراجع دور الدولة في زمن العولمة، وصلة الدولة المعقدة بالديمقراطية: ما بين مطلب النزوع إلى التسيد، ومطلب السعي إلى عدم المساس بحرية الإنسان. ومن تم طرح مؤلفو هذا الكتاب الجماعي السؤال المحوري: ترى، هل بتنا اليوم بحاجة إلى إعادة تصور ظاهرة الدولة بوفق نظرة إلى المستقبل؟ هو ذا التساؤل الذي حكم أصحاب هذا الكتاب، وهم طائفة مختارة من الباحثين المتخصصين في الفلسفة السياسية والعلوم السياسية، تناولوا ظاهرة الدولة من خلال مناهج نظر متقاطعة تمتح من التجارب التاريخية وتنفتح على المستقبل، ولا تنسى النظر من منظور فلسفة سياسية نقدية تفتح عينا على الواقع وعينا أخرى على المأمول.